سد هارتا

هرمان هسّه

- Author : Hermann Hesse
- Title: Siddhartha
- Translated by: Fouad Kamel
- Afaq's first edition: 2017
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- Genereal Editor: Tarek Hashim

- المؤلف: هرمان هسّه
- العنوان: سد هارتا
- ترجمة: فؤاد كامل
- طبعة آفاق الأولى 2017
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المحرر العام: طارق هاشم

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٥٣١٢
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 096 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هرمان هسّه

سد هارتا

رواية

ترجمة

فؤاد كامل

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

هسه، هرمان.

هرمان هسّه : سـد هارتا- رواية- ترجمة: فؤاد كامل

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

184 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 5312 / 2017

الترقيم الدولي 0 - 096 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - هسّه، هرمان

تصدير

بقلم المترجم

يتحدث الإنسان عن نفسه عندما يتحدث عن الآخرين. ولا تعجبنا أحاديث الآخرين إلا إذا وجدنا فيها أنفسنا..

وقد أحببت قصة «سـد هارتا» - و«سـد هارتا» كلمة سنسكريتية معناها «الرجل الذي بلغ هدفه»- لأسباب كثيرة. وأخادع نفسي إن لم أقل إن هذه الأسباب ترجع في معظمها إلى أنني وجدت شطرًا كبيرًا من نفسي في هذه القصة.

والواقع أن قصة «سـد هارتا» على الرغم من الجو الهندي الأسطوري الذي نُسجت فيه، يمكن أن تكون رواية كل إنسان يسير في طريق البحث عن ذاته الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى معرفة الله سبحانه وتعالى؛ «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

أحببت «سـد هارتا» لأنها قصة البطولة الروحية. البطل فيها هو الروح التي تسعى إلى الخلاص، وإلى معرفة الحقيقة عن طريق التجربة الحية والانغماس في الواقع، لا عن طريق التجريدات والجلوس على المقاعد الوثيرة في الحجرات المغلقة.

أحببت قصة «سـد هارتا» لأنها وجودية، ولا أظن أن مؤلفها قد تعمد إضفاء هذه الصفة عليها، بل إنه حريص على التخلص من كل مذهبية، كما ينعكس ذلك في سعي بطله الروحي الذي أراد الانعتاق من أسر المذاهب والتعاليم أيًّا كانت- ولكنني أصفها بهذا الوصف على هذا الأساس نفسه، أي بالمعنى الذي تؤخذ به الوجودية على أنها انتفاء لكل مذهب.

والنغمات المشتركة بين الوجوديات المختلفة نجدها معزوفة عزفًا كاملًا في هذه القصة الفريدة: ففيها تجد تلك الرغبة العارمة للبحث عن الذات، وذلك التوق المتقد لمعرفة النفس، والسير في طريق البحث عن الحقيقة دون اعتماد على الآخرين أو اتكال على خبراتهم وتعاليمهم. ويتلخص هذا كله في الطابع الفردي والشخصي جدًّا في البحث والخلاص على حد سواء ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥]، والإلحاح على الفردية واضح كل الوضوح في هذه القصة.

ولهذا ظل البطل ينتقل من طائفة إلى أخرى، متجاوزًا كل التعاليم والمذاهب المختلفة؛ لتكون له تجربته الخاصة وطريقته الشخصية في الوصول إلى الحقيقة. والتجربة الحيّة من أهم سمات الوجوديات الحقَّة، فعن طريق التجربة والتجربة وحدها، يمكن أن نصل إلى المعنى الحقيقي للوجود. و هذا ما نجده متمثّلًا أصدق تمثيل في «سـد هارتا» الذي ترك نفسه للتجربة وانغمس في الحياة حتى أعمق أعماقها، وشرب من كأس المعاناة الإنسانية حتى الثمالة. وبهذا اغترف من النبع الأصيل للوجود. قد تبدو هذه العبارات مجرد ألفاظ رنانة جوفاء، وقد كان «سـد هارتا» يمقت الألفاظ، ولا يعترف بغير الأشياء، بيد أن هذه الألفاظ تمتلئ مضمونًا ومعنى بعد العناء والمكابدة، وعلى من يريد أن يتحقق من صدقها أن يكابد الشوق ويعاني الصبابة:

لا يعرف الشوق إلا من يكابـــده

ولا الصبابة إلا من يعانيهـــا

وبالإضافة إلى هذا كله نجد النغمات الرئيسية في الوجوديات بارزة في تجربة «سـد هارتا» الحيّة كما عرضها «هرمان هسه» ذلك العرض الشاعري المشتعل حبًّا ووجدًا للحياة والأحياء.

ففيها «الحرية» والشهوة إلى التحرر من كل اتباع وتقليد؛ وفيها «العلو» على الذات علوًّا مستمرًّا لا يقف عند حد ولا يكف عن المحاولة والتجريب، وفيها «الإصغاء» إلى ما يقوله الوجود، ومحاولة فهم إشاراته وتلميحاته وقراءة شفرته وفك طلاسم المحجوب. وفي إنصات «ڤازوديڤا» الملّاح للنهر ومن بعده «سـد هارتا» أروع مثل على فن «الإصغاء» و«الإنصات»، وفيها الانشغال بالزمان والرغبة في معرفة كنه ذلك الهادم للملذات، المحطِّم للسعادات، وما يتبعه ذلك من التفكير في الموت والبحث عن الأبدية والخلود.

ولن أكشف في هذه العجالة للقارئ عن فلسفة «سـد هارتا»، وما توصل إليه من حكمة، بل أدعوه ليكتشفها بنفسه في السياق الحي للرواية، راجيًا أن يجد فيها ما وجدت وأكثر مما وجدت.

ومع ذلك التحفظ، أحب أن أسجل هذا الخاطر وهو

أن «سـد هارتا» هو ذلك الإنسان الذي بدأ بحثه بحب الحكمة- كما بدأ معظم الفلاسفة- ولكنه انتهى بحكمة الحب: حب الأشياء جميعًا، لا يفرق بين النهر والحجر، بين الشمس والقمر، بين الطير والشجر، بين الإنسان والزهر؛ لأنها جميعًا في عبادة الله سواء: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

صدق الله العظيم.

* * *

سد هارتا

الرجل الذي بلغ هدفه

تقديم

بقلم المترجم

هرمان هِسِّه Hermann Hesse كاتب ألماني معاصر، يعد من عباقرة الأدب الألماني الحديث، ومن شوامخ الروائيين في كل زمان ومكان.

ولد في فورتمبرج بألمانيا في ٢ يوليو ١٨٧٧ من أسرة دينية تغلب عليها التقوى والورع، فقد كان أبوه مبشرًا وقسيسًا، وقد اختار لابنه مصيرًا كمصيره، فأدخله ديرًا بروتستانتيًّا يعرف بدير «ماولبرن» ليتخرج فيه راعيًا ومبشرًا كأبيه. وابتداء من دخول هذا الدير كانت حياة هرمان سلسلة من

التمردات والثورات.. فلم يلبث الصبي أن ثار على هذا التعليم الديني الصارم، على الرغم من اعتراف أساتذته جميعًا بأنه تلميذ نموذجي بكل المقاييس، فلم يمكث في هذا الدير أكثر من نصف عام، هرب بعدها متمردًا على البيت والتعليم الديني على حد سواء.

ولم يجد أبوه بدًّا من إلحاقه بالتعليم المدني «العلماني»، إلا أن الفتى المتمرد لم يتكيف أيضًا مع هذا النوع من التعليم، وكان نفوره من التعليم المدرسي بكل أشكاله حادًّا إلى درجة هدد معها بالانتحار إذا هو أرغم على البقاء في المدرسة.

وانتهت هذه الفترة من حياته بانقطاعه تمامًا عن التعليم التقليدي واشتغاله «صبي» ميكانيكي في إحدى الورش، ثم بائع كتب في مدينة توبنجن، ثم في مدينة بال حيث استقر فيها منذ سنة ١٨٩٩.. وقد سجل اشمئزازه وتقززه من قيود الحياة المدرسية التقليدية في روايته **Unterm Rad** وعنوانها في الترجمة الإنجليزية التي ظهرت سنة ١٩٥٨ «تحت العجلة» **Beneath the Wheel**. وبانقطاعه عن

العلم بمعناه الأكاديمي، عكف على القراءة الحرة، وعُرف منذ ذلك الحين بنهمه إلى الاطلاع والدراسة والبحث، وأتاحت له مهنته كبائع كتب الاتصال بأوساط المثقفين والأدباء، وبدأ في مراسلة الصحف الأدبية كاتبًا للمقالات والقصص بالقطعة.

وظهرت أولى رواياته «بيتر كامنتسند» Peter Camenzend في عام ١٩٠٤ فصادفت نجاحًا ملحوظًا، وكان موضوعها هو تمرد الأبناء على الآباء، وفيها يبسط تجربته في فترة التمرد الأولى على الأسرة والمدرسة، واختار أن يكون بطلها كاتبًا فاشلًا مشتتًا لم يستقر على أهدافه بعد. وأردفها برواية «جرترود» Gertrude (١٩١٠) وفيها يواصل التنقيب في نفسية الفنان وفحص حياته من الداخل والخارج على السواء.

وفي سنة ١٩١١ رحل «هرمان هسه» إلى الهند طلبًا للاستجمام، وهربًا من الأزمات التي أخذت تتدافع على أوروبا حتى أودت بها إلى الحرب العالمية الأولى. فكانت هذه الرحلة فرصة أتاحت له التفكير- عن بُعد- في متناقضات العالم الحديث.

وكانت ثمرة هذه الرحلة رواية «روسهالده» Rosshalde (١٩١٤) التي يرحل فيها البطل إلى الهند كما رحل «هسّه»، ورواية أخرى ظهرت بعد ذلك بثماني سنوات هي رواية «سـد هارتا» (١٩٢٢) التي نقدم للقارئ ترجمتها في هذا الكتاب.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى كان تأثر «هسّه» بها تأثرًا بالغًا، فقد كان طيلة حياته مستنكرًا نافرًا معاديًا للروح العسكرية الألمانية التي سادت هذه الفترة. وقد حاول أن يفعل ما فعله صديقه الفرنسي الكاتب الإنساني الكبير «رومان رولان»، فيقف بمعزل عن الجماهير، متأملًا هذه الكارثة الكونية التي لم ينج من آثارها المدمرة شارد ولا وارد. فسافر إلى سويسرا المحايدة عدة مرات، وأخذ يكتب النداء تلو النداء ضد الروح العسكرية والقومية، إذ يعتقد أن هذه الروح هي سبب البلاء. كما أقدم على تحرير صحيفة للأسرى والمعتقلين الألمان. ثم قرر الإقامة في سويسرا نهائيًا في سنة ١٩١٩ وظل مقيمًا بها حتى اكتسب الجنسية السويسرية في عام ١٩٢٣، وبها قضى بقية حياته حتى وفاته في مدينة مونتانيولا

في ٩ أغسطس سنة ١٩٦٢.

وكانت حياته في فترة الحرب مأساوية إلى أبعد حد، فبالإضافة إلى صدمة الحرب العنيفة التي اكتوى المثقفون وغير المثقفين بنيرانها، توالت عليه الصدمات الشخصية، فأصاب ابنه الأصغر مرض عضال، وفشلت زيجته الأولى، وتوفي أبوه، وكانت نفسه نهبًا لصراعات نفسية وذهنية حادة ألجأته في نهاية الأمر إلى مستشفى للأمراض النفسية والعصبية على مقربة من لوسرن، وأشرف على علاجه الدكتور ج. ب. لانج J.B.Lang وهو أحد تلاميذ العالم النفساني السويسري كارل يونج C. Jung، واستغرق علاجه ٧٢ جلسة في التحليل النفسي. وفي هذه الفترة كتب «هسه» رائعته التي أطارت شهرته في أوروبا كلها، وأذاعت صيته في العالم أجمع وهي رواية «دميان» Demian (١٩١٩). وفي هذه الرواية تعبير عن قلق تلك الفترة وعذاباتها، ويظهر فيها تأثير التحليل النفسي عليه، وأثر تعرفه بيونج ونظريته في الانطواء والانبساط واللاشعور الجمعي والنزعة المثالية والرمزية، وتنقية الطبيعة البشرية... إلخ.

وتوالت بعد «دميان» سلسلة «السير الروحية»: فجاءت «سـد هارتا» (١٩٢٢) محاولة لحل التناقضات التي تتنازع فكره في جو أسطوري هندوكي، ثم روايته الشهيرة «ذئب الإستبس» أو البراري (١٩٢٧) Steppenwolf التي تعد من أشد رواياته أصالة، وفيها يدور الصراع الدرامي بين التسليم البورجوازي والتمرد الفطري الغريزي في الإنسان.

وكان الصراع الأبدي الناشب بين الروح والجسد- وهو صراع تلمسه واضحًا في رواياته المبكرة، ومنها رواية سـد هارتا- من الموضوعات التي شغلت «هسه» دائمًا، وعن هذا الصراع تدور روايته «نرجس وفم الذهب» (١٩٣٠) Narziss Und Goldenmund وترجمت بالإنجليزية تحت عنوان «الموت والعاشق» (١٩٣٢) بين بطلين أحدهما زاهد عقلاني مثقف قانع بالعقيدة المقررة، والآخر فنان حسي متمرد يسعى وراء خلاصه الخاص.

ويعود «هرمان هسه» إلى الشرق ملتمسًا العزاء الروحي والفكري مرة أخرى في كتابه

Die Morgenlandfahrt (١٩٣٢)، وترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان «رحلة إلى الشرق» وهي قصة حج وأسطورة، وفيها يظهر تأثير «يونج» واضحًا في دراسته للرموز والأساطير في التراث الشرقي القديم..

وبلغ «هسه» ذروة إنتاجه في رواية «لعبة الكريات الزجاجية» Das Glassperlenspiel (١٩٤٣) وهي آخر رواياته وأطولها. وقد ظهرت والحرب العالمية الثانية مشتعلة الأوار، وحاول فيها المؤلف تسجيل وصيته الأخيرة للعالم، فوضع فيها خلاصة تجاربه وفلسفته التي تعد نسيجًا أصيلًا تضافرت في صنعه الفلسفات الشرقية والغربية. وتدور الرواية حول صفوة من الرجال الممتازين عزلوا أنفسهم في مقاطعة مغلقة بعيدة عن صخب الحياة وضوضائها، وحاولوا تركيز كل إبداعات الروح الإنسانية ومخترعاتها في نوع من الجبر الرمزي. وفي هذه الرواية يعود «هسه» إلى تلك الثنائية التي شغلته طيلة حياته بين الروح والجسد، ويغامر بطلها «جوزيف» بحثًا عن نزعة إنسانية إيجابية. ويضمنها «هسه»

بعض قصائده التأملية التي كتبها في الأسابيع الأخيرة من حياته. وكانت هذه الرواية سببًا في حصوله على جائزة نوبل للآداب في سنة ١٩٤٦.

ويعد «هرمان هسّه» هو ومعاصره الكاتب الألماني الكبير «توماس مان» (١٨٧٥ - ١٩٥٥) من روَّاد المدرسة التأثرية الألمانية، وهي المدرسة التي تمثل انعطافة أساسية في الأدب الألماني منذ ظهور «جوته»، وكانت ابتعادًا وخروجًا على تقاليد المذهب الواقعي الذي يهتم بتفاصيل الحياة اليومية، وتقديم شريحة من العالم الخارجي للقارئ.

وقد تأثر «هرمان هسه» بالرومانسية الجديدة، وركز على صراع الإنسان الروحي. وابتداء من روايته الأولى يصور صراع الأفراد في عالم معاد للحساسية. وكان ارتياده لعالم الشعور عميقًا بتأثر مدرسة التحليل النفسي في عهده على أيدي فرويد وأتباعه (يونج وآدلر). وكان ينشد نوعًا من التوازن بين الروح والشهوات الحسية، وانتهى به السعي الروحي إلى التساؤل عن الغاية النهائية للمدنية الحديثة.

أما أسلوبه فيجمع بين الوضوح الموضوعي الدقيق، والشاعرية الصافية الشفافة، كما يمتاز بالإيجاز الشديد الذي يجعله أشبه بأسلوب الكتاب المقدس في بساطته وصفائه.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

ابن البرهمي

في ظلال البيت، وفي ضياء الشمس المشرقة على ضفة النهر حيث ترقد الزوارق، وتحت ظل الغابة الشاحبة وشجرة التين، نشأ «سـد هارتا» الوسيم ابن البرهمي مع صديقه «جوفيندا».

وكانت الشمس قد لوَّحت مِنكبيه النحيلتين عند شاطئ النهر أثناء استحمامه حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين.. وكانت الظلال تخايل عينيه وهو يلعب في بستان المانجو، بينما أخذت أمه في الغناء، وأبوه في إلقاء تعاليمه بين أنداده من العلماء. وكان «سـد هارتا» قد شارك فعلًا منذ وقت بعيد في المحادثات التي تدور بين هؤلاء العلماء، واشتبك في جدال مع جوفيندا، ومارس فن التأمل والتفكير في صحبته، وعرف أيضًا كيف ينطق كلمة «أوم»

Om صامتًا، هذه الكلمة التي هي أم الكلمات، وكيف يلفظها في دخيلة نفسه مع دخول الشهيق، وعندما ينفث الزفير بجماع روحه، وقد شعّ جبينه وهجًا من الروح الطاهر. وكان قد عرف أيضًا كيف يتعرف على «أتمان» Atman في أعماق وجوده الذي لا يتطرق إليه الفناء، والمتناغم مع الكون..

وكان السرور يغمر قلب أبيه كلما شاهد ابنه الذكي المتعطش إلى المعرفة، وكان يراه وقد شب عن الطوق عالمًا عظيمًا، وكاهنًا، وأميرًا بين البراهمة.

وكان الزهو يملأ صدر أمه كلما رأته ماشيًا أو قاعدًا أو قائمًا، وكان سد هارتا القوي الوسيم ذو الأطراف المطواعة يحييها في رشاقة كاملة.

وكان الحب يتحرك في أفئدة بنات البراهمة الغريرات كلما عبر سد هارتا شوارع القرية بجبينه الأشم، وبعينيه الملكيتين، وقوامه السمهري.

وكان صديقه «جوفيندا»، ابن البرهمي، يحبه كما لا يحب أحدًا آخر، كان يحب عيني سد هارتا، وصوته الصافي.. كان يحب مشيته والرشاقة الكاملة التي تتسم بها حركاته.. كان يحب كل ما يفعله سد هارتا وكل ما يقوله، ويحب فوق هذا كله، عقله، وأفكاره المتقدة المرهفة، وإرادته القوية، وشعوره بسمو رسالته. وكان جوفيندا يعلم

أن صديقه لن يكون برهميًّا عاديًّا، أو كاهنًا كسولًا يقدم القرابين، أو تاجرًا بخيلًا للأقوال السحرية، أو واعظًا مغرورًا لا وزن له، أو راهبًا ماكرًا شريرًا، كلّا، ولن يكون مجرد شاة غبية طيبة بين قطيع كبير.. كلّا ولن يكون جوفيندا نفسه ولا يريد أن يكون شيئًا من هذا كله، أو مجرد برهمي مثل عشرة آلاف برهمي آخر من هذا الطراز...

إنه يريد أن يتبع سـد هارتا المحبوب الرائع. فإذا شاءت الأقدار أن يصير إلهًا، وأن يدخل في حضن النور الشامل، فإن جوفيندا يريد أن يتبعه بوصفه صديقًا ورفيقًا وخادمًا وحامل رمحه، وظلًّا من ظلاله..

وعلى هذا النحو، كان الجميع يحبون «سـد هارتا»، وكان هذا الحب مبعث سروره. فكان يسعده أن يكون مصدر سعادة للآخرين..

بيد أن «سـد هارتا» نفسه لم يكن سعيدًا.. فعندما يتجول في الممرات الوردية التي تقطع بستان التين، ويجلس غارقًا في تأملاته تحت ظلال الأيكة المائلة إلى الزرقة، أو يغسل أطرافه في حمام التكفير اليومي، أو يقدم القرابين في أعماق غابة المانجو الظليلة بحركاته تلك التي تتسم بالرشاقة الكاملة، والتي يعشقها الجميع ويسر لها الناس جميعًا.. عندما يفعل هذا كله، كان خاويًا من السعادة. كانت الأحلام والخواطر القلقة تتدفق عليه من النهر، أو تتساقط عليه من نجوم الليل المتلألئة، أو تغمره من أشعة الشمس

الذائبة، وتأتي إليه الأحلام وينتابه القلق الذي لا يدع للروح مستقرًّا، منبعثًا من دخان القرابين، صادرًا عن أشعار الريجڤيدا **Rig-Veda**، منسابًا من تعاليم البراهمة الأقدمين.

بدأ سـد هارتا يشعر ببذور السخط تنبت داخل نفسه، وأخذ يشعر أن حب أبيه وأمه، وكذلك حب صديقه «جوفيندا»، لا يجعله دائمًا سعيدًا، ولا يمنحه الطمأنينة، ولا يرضيه، ولا يكفيه. وجعل يرتاب في أن والده المبجل ومعلميه الآخرين من البراهمة الحكماء قد نقلوا إليه لب حكمتهم وخير ما فيها، وأنهم قد صبوا جماع معرفتهم في وعائه المنتظر، غير أن الوعاء لم يمتلئ، وعقله لم يقنع، وروحه لم تعرف الأمن، وقلبه لم ينعم بالاستقرار.. وكانت شعائر التطهير شيئًا طيبًا، ولكنها لم تكن أكثر من ماء.. فهي لا تمحو الخطايا تمامًا، ولا تفرِّج عن القلب المكروب.. وكانت القرابين والضراعات التي تُرفع إلى الآلهة رائعة.. ولكن هل كانت كل شيء؟ هل تهب القرابين السعادة؟ وماذا عن الآلهة؟ هل كان «براچاباتي» **Prajapati** هو الذي خلق العالم حقًّا؟ ألم يكن «أتمان»- وهو وحده- الذي خلقه؟ أليست الآلهة أشكالًا مخلوقة مثلي ومثلك أشكالًا فانية، عابرة؟ أمن الخير والحق إذن، أو من الصواب والحكمة تقديم القرابين للآلهة؟ لمن إذن يكون من الواجب على المرء أن يقدم القرابين؟ ولمن يسبِّح إن لم يكن له هو: «أتمان» الواحد الأوحد؟ وأين يمكن أن يوجد أتمان؟ أين يسكن؟ وأين ينبض قلبه الأبدي إن لم يكن داخل

«الذات» في الأعماق، في الأبدي الذي يحمله كل إنسان في سريرة نفسه؟ ولكن أين هذه «الذات».. هذه السريرة؟ إنها ليست اللحم والعظم، وليست الفكر أو الشعور.. هذا ما يعلمنا الحكماء.. أين هي إذن؟ الإسراع نحو الذات، صوب «أَتمان». هل هناك سبيل آخر أحق بالسعي؟ لم يبين الطريق أحد.. ولم يعرفه أحد- لم يعرفه أبوه أو المعلمون أو الحكماء، أو الأغاني المقدسة. البراهمة وكتبهم المقدسة يعلِّمون كل شيء.. كل شيء، لقد تناولوا كل شيء- خَلْق العالم، أصل الكلام، الطعام، الشهيق، الزفير، ترتيب الحواس، أفعال الآلهة. إنهم يعرفون عددًا هائلًا من الأشياء.. ولكن ما قيمة معرفة هذه الأشياء جميعًا إن لم يعرفوا الشيء الوحيد المهم، الشيء الأوحد المهم؟

كثيرًا هي القصائد التي تضمها الكتب المقدسة، ولا سيما أوبانيشاد ساماڤيدا **Upanishads Samavida** التي تحدثت عن هذا الشيء المستتر. وقد كُتِب فيها «إن روحك هي العالم بأسره». وتقول إن الإنسان عندما ينام ينفذ إلى أعماق سريرته ويستقر في «أتمان». وهي قصائد حافلة بحكمة رائعة، ومعرفة الحكماء كلها تُرْوى هنا في لغة غنائية صافية كعسل النحل.. كلّا، إن هذا القدر الهائل من المعرفة الذي جمعته وحفظته أجيال متعاقبة من البراهمة الحكماء، لا يمكن أن نتجاهلها في يسر. ولكن أين هم البراهمة والكهنة والحكماء الذين أفلحوا، لا في الحصول على هذه المعرفة

العميقة، بل في تجربتها؟ أين هم السالكون الذين بلغوا «أتمان» في منامهم، ثم استطاعوا الاحتفاظ به في الوعي، في الحياة، في كل مجال، في الأقوال والأفعال؟ وكان سـد هارتا يعرف كثيرًا من البراهمة الأجلاء، ويعرف أباه فوقهم جميعًا- كانوا جميعًا مقدسين، متبحرين في العلم، جديرين بأسمى آيات التقدير، وكان أبوه خليقًا بالإعجاب، وسلوكه يكتسي بالهدوء والنبل، وهو يحيا حياة طيبة، وعباراته تشع بالحكمة، والأفكار الجميلة النبيلة تستقر في رأسه- ولكن، حتى هذا الذي يعرف كل هذه المعرفة، أيعيش في سعادة؟ أو يعرف السلام؟ أليس هو أيضًا باحثًا لا يشبع؟ ألا يذهب دائمًا وأبدًا إلى الينابيع المقدسة يحدوه ظمأ لا يرتوي، وإلى القرابين، والكتب، ومحاضرات البراهمة؟ ولماذا ينبغي عليه، وهو المنزه عن اللوم، أن يزيل خطاياه، ويحاول أن يطهر نفسه من جديد كل يوم، أيكون أتمان غير موجود في داخله؟ أيكون النبع غير موجود داخل قلبه؟ على المرء أن يجد المنبع داخل «ذاته»، ولا بد للمرء من أن يمتلكه. وما عدا ذلك فهو بحث.. ضلال وخطأ.

كانت هذه أفكار سـد هارتا، وكان هذا تعطشه وحزنه.

وكان كثيرًا ما يردد بينه وبين نفسه العبارات الواردة في كتاب من كتب تشاندوجيا- أوبانيشاد **Chandogia- Upanishad**.

كانت هذه العبارات تقول: إن اسم براهما- في الحقيقة- هو

ساتيام، وبالطبع فإن من يعرفه يدخل العالم العلوي كل يوم.

وكان هذا العالم العلوي يبدو قريبًا في كثير من الأحيان، ولكنه لم يصل إليه قط، ولم يطفئ ظمأه النهائي أبدًا.. ولم يكن بين الحكماء الذين عرفهم والذين استمتع بتعاليمهم، من بلغ هذا العالم العلوي تمامًا، أو أطفأ ذلك الظمأ الأبدي تمام الإطفاء.

قال سـد هارتا لصديقه: «جوفيندا.. تعال معي إلى شجرة البنيانا (التين الهندي)، لنمارس التأمل..».

وذهبا إلى شجرة البنيانا، وافترشا الأرض وبينهما مسافة عشرين خطوة. وما إن جلس سـد هارتا متأهبًا لنطق اسم الإله، حتى أنشد هذه الأبيات بصوت رقيق:

«أوم هو القوس، والسهم هو الروح،

وبراهما هو هدف السهم

الذي يسدده المرء دون إجفال».

وعندما انقضى الوقت المعتاد لممارسة التأمل، نهض جوفيندا. كان المساء قد حل، وحان وقت أداء التطهرات المسائية، فنادى على سـد هارتا باسمه، فلم يرد عليه. كان سـد هارتا مستغرقًا في تأملاته وقد تركزت عيناه كأنهما مسددتان على هدف بعيد، وظهر طرف لسانه قليلًا من بين أسنانه، وبدا كأنه يتنفس. وهكذا جلس غارقًا في تأملاته يفكر في «أوم»، وروحه كالسهم مسددة صوب «براهما».

وذات يوم عبرت قرية سـد هارتا جماعة من الساماناSamanas مؤلفة من ثلاثة من الزُّهاد المتجولين يعلوهم النحول والإرهاق.. وكانت أعمارهم وسطًا بين الشيخوخة والشباب، وعلى أكتافهم الدامية طبقة من التراب، كانوا شبه عراة وقد أحرقتهم الشمس، متوحدين، غرباء، متوجسين.. ثعالب عجافًا في عالم البشر. حولهم يحوم جو من العاطفة الهامدة، ومن الخدمة الماحقة، ومن إنكار للذات لا يعرف الرحمة..

وفي المساء بعد انتهاء ساعة التأمل قال سـد هارتا لجوفيندا: «في صباح غد سينضم سـد هارتا للسامانا يا صديقي. إنه سوف يصبح سامانيًّا». وامتقع وجه «جوفيندا» وهو يسمع هذه الكلمات، وطالع التصميم في وجه صديقه الذي ارتسم العزم على ملامحه، وكسته الصرامة كالسهم المنطلق من القوس. وأدرك «جوفيندا» من اللمحة الأولى التي رمق بها وجه صديقه أن البداية قد حلت. إن «سـد هارتا» يشق الآن طريقه الخاص، وأن مصيره قد شرع ينشر طياته، مع مصيره هو أيضًا. وغدا «جوفيندا» شاحبًا كقشرة موز جافة.

وهتف قائلًا: «أي سـد هارتا، وهل يسمح أبوك بذلك؟..» ونظر إليه سـد هارتا كشخص استيقظ لتوه.. وفي سرعة البرق، قرأ ما يجول في نفس جوفيندا.. قرأ الجزع والتسليم.

فأجاب في رقة: «لا داعي للإفاضة في الكلام، غدًا عند مطلع الفجر، سأبدأ حياة الساماني. فلنضرب صفحًا عن مناقشة هذا الموضوع مرة أخرى».

ودخل سـد هارتا الحجرة التي يجلس فيها أبوه على حشية من الليف. ووقف وراء أبيه، وظل واقفًا في مكانه حتى أحس أبوه بوجوده، فسأله البرهمي:

«أهذا أنت يا سـد هارتا؟ أفصح عما يدور في ذهنك».

فقال سـد هارتا: «بعد إذنك يا أبي جئت لأخبرك إنني سأغادر منزلكم غدًا، وسألحق بالزُّهاد.. أريد أن أكون سامانيًّا، وأنا على ثقة في أن أبي لن يعارض». والتزم البرهمي الصمت طويلًا حتى عبرت النجوم وغابت عن النافذة الصغيرة، وغيرت تشكيلها قبل أن ينقطع الصمت أخيرًا من الحجرة. وكان ابنه يقف ساكنًا لا يتحرك وقد تشابكت ذراعاه، وكذلك جلس الأب صامتًا لا حراك به فوق الحشية، والنجوم تعبر صفحة السماء. وحينئذ قال الأب: «لا يليق بالبراهمة أن يتفوهوا بألفاظ عنيفة غاضبة، بيد أن ثمة استياء في قلبي.. فلا أحب أن أسمع منك هذا الطلب مرة أخرى». ونهض البرهمي متئدًا. وظل سـد هارتا صامتًا شابك الذراعين.

فسأله أبوه: لماذا تنتظر؟

فأجابه سـد هارتا: «أنت تعرف السبب».

وغادر أبوه الحجرة حانقًا. ورقد على سريره.

فلما انقضت ساعة، دون أن يستطيع النوم، نهض البرهمي، وأخذ يتجول هنا وهناك، ثم غادر المنزل. ونظر عبر نافذة الحجرة الضيقة، فأبصر سـد هارتا واقفًا هناك وقد شبك ذراعيه، بلا حراك. وكان يستطيع أن يرى رداءه الشاحب يومض واهنًا.. وهنا اضطرب قلب الأب، فعاد إلى فراشه.

فلما انقضت ساعة أخرى دون أن يستطيع البرهمي النوم، نهض مرة أخرى وأخذ يذرع البيت هنا وهناك، ولم يلبث أن بارحه، فأبصر القمر بازغًا، فأرسل بصره خلال النافذة. كان سـد هارتا منتصبًا هناك دون حراك، شابكًا ذراعيه. وسطع القمر على ساقيه العاريتين. وعاد الأب إلى فراشه مضطربًا واجف القلب..

وعاد ثانية بعد ساعة، ثم عاد مرة أخرى بعد ساعتين، ونظر خلال النافذة فرأى سـد هارتا واقفًا في نور القمر، وفي ضوء النجوم، وفي الظلام. ثم أتى صامتًا مرة أخرى، وساعة إثر أخرى، ونظر في الحجرة ورآه واقفًا بلا حراك، فامتلأ قلبه بالغضب، والقلق، والخوف، والأسى..

وفي الهزيع الأخير من الليل، قبل مطلع الفجر، رجع مرة أخرى، ودخل الحجرة، فأبصر الشاب واقفًا هناك، فبدا طويلًا، وغريبًا عنه.

قال.. «سـد هارتا.. لماذا تنتظر؟».

- أنت تعرف السبب..

- هل ستظل واقفًا تنظر حتى يحل النهار، والظهر، والمساء؟

- سأقف وأنتظر...

- سينال منك التعب، أي سـد هارتا!

- سينال مني التعب..

- سوف يغشاك النوم، أي سـد هارتا!

- لن يغشاني النوم..

- ستموت.. أي سـد هارتا!

- سأموت.

- وهل تؤثر الموت على أن تطيع أباك؟

- لقد أطاع سـد هارتا دائمًا أباه..

- إذن فسوف تعدل عن مشروعك؟

- سيفعل سـد هارتا ما أمره به أبوه.

وتسلل أول شعاع من الضوء إلى الحجرة، ورأى البرهمي أن ركبتي سـد هارتا ترتعدان رعدة خفيفة، وإن لم يكن هناك أي أثر للارتعاد على وجه سـد هارتا. وكانت عيناه تنظران بعيدًا، وعندئذ أدرك الأب أن سـد هارتا لا يستطيع أن يمكث معه في المنزل- وأنه قد فارقه فعلًا.

ولمس الأب كتف سـد هارتا وقال: «سوف ترحل إلى الغابة لتصبح سامانيًّا. فإن وجدت السعادة في الغابة، فعد إليّ وعلمني إياها. وإن انقشعت أوهامك، فارجع، وسنقدم القرابين للآلهة معًا مرة أخرى. والآن اذهب فقبِّل أمك، وأخبرها أين ستذهب. أما أنا، فقد حان وقت ذهابي إلى النهر لأقوم بالاغتسال الأوّل..».

وأرخى يده متخليًا عن كتف ابنه، وخرج. وترنح سـد هارتا حينما هم بالسير، ولكنه جمع نفسه، وانحنى لوالده، ثم ذهب إلى أمه ليصنع ما أُمر به.

وما إن بارح القرية التي كانت نائمة عند مطلع الفجر، بساقيه المخدرتين، حتى برز شبح محني الظهر من الكوخ الأخير، وانضم إلى المهاجر.. وكان هذا الشبح هو «جوفيندا».

قال سـد هارتا: «ها أنت قد أتيت..» ثم ابتسم.. قال جوفيندا: «نعم.. لقد أتيت»..

* * *

الفصل الثاني

مع السامانا «النسّاك»

وفي مساء ذلك اليوم لحقوا بالسامانا، وطلبوا مرافقتهم والولاء لهم، فاستجابوا لطلبهم، وأعطى «سـد هارتا» ثيابه لبرهمي مسكين صادفه في طريقه، ولم يحتفظ إلا بمئزره وبعباءة غير مخيطة بلون الأرض، ولم يكن يأكل غير مرة واحدة في اليوم، ولا يطهو الطعام إطلاقًا. وكان يصوم أربعة عشر يومًا، ثم صام ثمانية وعشرين يومًا. فاختفى اللحم من ساقيه ووجنتيه، وانعكست أحلام غريبة في عينيه اللتين ازدادتا اتساعًا. وطالت الأظفار في أنامله النحيلة، وظهرت لحية كثة فوق ذقنه. وكانت نظراته جليدية إذا التقى بالنساء، وتلتوي شفتاه اشمئزازًا إذا مر ببلدة يرتدي أهلها فاخر الثياب. وكان يرى

رجال الأعمال يتاجرون، والأمراء يخرجون للصيد، والنائحين يبكون موتاهم، والبغايا يعرضن أنفسهن، والأطباء يعالجون المرضى، والكهنة يقررون تمضية يومهم في بذر الحَب، والعشاق يتبادلون الحُب، والأمهات يعللن أطفالهن، ولم يكن هذا كله يستحق لمحة عابرة، كل شيء يكذب، مستنقع من الأكاذيب.. إنها كلها أوهام صنعتها الحواس والسعادة والجمال.. كل شيء مآله الفناء، والعالم مذاقه مُرّ، والحياة نسيجها عذاب..

ولم يكن لسد هارتا غير هدف واحد: أن يصبح خاليًا.. خاليًا من العطش والشهوة والأحلام والمتعة والآلام، أن يقضي بالموت على «الذات».. ألا يعود «ذاتًا»، وأن يجرب السلام الذي ينعم به قلبٌ خاوي الوفاض، وأن يجرِّب الفكر الخالص، هذا هو هدفه، فعندما ينتصر على «الذات» كلها فتموت، وعندما تصمت الشهوات والرغبات جميعًا، حينئذ تستيقظ البقية الأخيرة، أعماق «الوجود» الذي لم يعد «ذاتًا».. السر الأعظم!

وكان سد هارتا يقف ساكنًا تحت أشعة الشمس الناهشة، يفيض ألمًا وظمأً، ولا يفتأ واقفًا حتى يبارحه الشعور بالألم والظمأ. وصامتًا يقف تحت المطر، ينسكب الماء من شعره على كتفيه المتجمدتين، وعلى فخذيه وساقيه المتجمدتين. ويظل الزاهد واقفًا حتى تنقطع كتفاه وساقاه عن التجمد، حتى تصمت وحتى تسكن.

وصامتًا يرقد بين الأشواك، فإذا سالت الدماء من جلده الموخوز، وتكونت القروح، ظل سـد هارتا متصلبًا جامدًا حتى تتوقف الدماء عن النزيف، وحتى ينقطع لذع الألم، ووخز الأشواك.

وكان سـد هارتا يجلس مستقيمًا، وتعلم توفير أنفاسه، حتى تمكَّن من الاكتفاء بأقل قدر منها، بل الإمساك عن التنفس. وتعلم أثناء الشهيق أن يهدئ ضربات قلبه، وأن يقلل من نبضاته، حتى لم يبق منها إلا القليل، بل كاد لا يتبقى منها شيء.

وخضوعًا لتعاليم أكبر السامانا سنًّا، مارس سـد هارتا إنكار الذات والتأمل وفقًا لقواعد السامانا. وذات مرة حلّق طائر البلشون «مالك الحزين» فوق غابة البامبو، فوضعه سـد هارتا في أعماق روحه، وهكذا حلق فوق الغابة والجبال، وأصبح بلشونًا يأكل الأسماك، ويعاني من الجوع الذي يعانيه البلشون، ويستخدم اللغة التي يستخدمها البلشون، وأخيرًا مات ميتة البلشون. وعلى الشاطئ الرملي رقد ثعلب ميت، فتسللت روح سـد هارتا إلى الجثة، فصار ميتًا، راقدًا على الشاطئ، منتفخًا نتنًا، عفنًا، انتزعت أطرافه الضباع، ونهشته جوارح الطير، حتى غدا هيكلًا، ثم ترابًا اختلط بالرياح. وعادت روح سـد هارتا، وماتت، وتآكلت، ورجعت إلى التراب، وعانت السيرة المضطربة لدورة الحياة. وانتظر يدفعه ظمأ جديد كصياد إزاء جحر حيث تنتهي دورة الحياة، وحيث توجد نهاية

للأسباب، حيث يبدأ الأبد الذي يخلو من الآلام.. لقد أباد حواسه، وقتل ذاكرته، وأفلت من «ذاته» بآلاف من الصور المختلفة.. تشكل في صورة حيوان، وجيفة، وحجر، وخشب وماء، وكان يعود إلى الحياة في كل مرة. والشمس تسطع، والقمر يطلع، وها هو «ذات» مرة أخرى، يتأرجح في دورة الحياة، ويشعر بالظمأ، ويتغلب عليه، ويشعر بظمأ جديد..

وتعلم سـد هارتا الكثير من السامانا، تعلم أساليب كثيرة لفقدان «الذات». وسافر في طريق إنكار الذات عبر الألم، وعبر التعبير الإرادي، والتغلب على الألم، عبْر الجوع والعطش والتعب.. وسافر في طريق إنكار الذات عبر التأمل، وعبر إخلاء الذهن من الصور جميعًا. عبر هذه وغيرها من السبل تعلم السفر. وفقد ذاته آلاف المرات وظل أيامًا بأكملها مقيمًا في العدم.. ولكن على الرغم من أن تلك السبل قادته بعيدًا عن «الذات»، فقد كانت تعود به في النهاية إليها دائمًا. ومع أن «سـد هارتا» أفلت من «الذات» آلاف المرات، واستقر في العدم، وأقام في الحيوان والصخر، إلا أن العودة كانت محتومة. كانت اللحظة التي يجد فيها نفسه في ضوء الشمس أو نور القمر، في الظل أو المطر، كانت هذه اللحظة حتمًا مقضيًا، فيعود «ذاتًا» ويعود «سـد هارتا»، ويعود يشعر بالعذاب المصاحب لدورة الحياة الشاقة..

وإلى جانبه عاش «جوفيندا» كظله، يسافر معه في الطريق نفسه، ويقوم بالمحاولات نفسها، وقلما كانا يتحادثان إلا في ضرورات العبادة والطقوس.

وكانا يذهبان أحيانًا معًا إلى القرى يستجديان الطعام لهما ولمعلميهما. وفي إحدى رحلات الاستجداء هذه سأل سـد هارتا: «هل تعتقد يا جوفيندا أننا تقدمنا قليلًا؟ هل وصلنا إلى هدفنا؟».

فأجاب جوفيندا: «لقد تعلمنا، وما زلنا نتعلم. وستصبح سامانيًّا عظيمًا يا سـد هارتا. ولقد تعلمت كل تمرين بسرعة. وشيوخ السامانا يثنون عليك في كثير من الأحيان. وسيأتي يوم تصبح فيه رجلًا مقدسًا يا سـد هارتا».

قال سـد هارتا: «لا يبدو الأمر لي على هذا النحو يا صديقي، فإن ما تعلمته من السامانا الآن، كان يمكن أن أتعلمه أسرع وأيسر في أي حانة في حي البغايا بين الحمَّالين ولاعبي النرد».

قال جوفيندا: «لا شك أن سـد هارتا يمزح، فكيف يمكن أن تتعلم التأمل وحبس النفس وعدم الإحساس بالجوع والألم مع أولئك الأوغاد؟».

فأجاب سـد هارتا في رفق وكأنما يناجي نفسه: «ما التأمل؟ وما التخلي عن الجسد؟ وما الصوم؟ وما حبس النفس؟ إنه هروب من «الذات»، إنه فرار مؤقت من عذاب «الذات»، إنه مسكِّن مؤقت

للألم وحماقة الحياة. إن سائق الثيران يلجأ إلى هذا الهروب نفسه، ويتناول هذه الجرعة المؤقتة نفسها عندما يشرب في الحانة بضع طاسات من نبيذ الأرز أو لبن جوز الهند.. عندئذ يفقد الشعور بذاته، ولا يشعر بآلام الحياة. وفي هذه الحالة يجرب الهروب المؤقت، فإذا ارتمى نائمًا فوق طاسة نبيذ الأرز، وجد ما يجده سـد هارتا وجوفيندا عندما يهربان من جسديهما بالمران الطويل ليستقرا في «اللاذات»».

قال جوفيندا: «تقول هذا يا صديقي، ومع ذلك فأنت تعلم أن سـد هارتا ليس سائقًا للثيران، كما أن الساماني ليس سكيرًا. إن مدمن الشراب لا يجد المهرب حقًّا، وإنما يجد راحة قصيرة وسكنًا، ولكنه يعود من الوهم ليجد كل شيء كما كان من قبل، فهو لم يصبح أوفر حكمة أو أغزر معرفة، ولم يصعد إلى مكان أعلى».

فأجاب سـد هارتا بابتسامة على وجهه: «لست أدري. فلم أكن سكيرًا قط. يبدو أنني أنا الذي أدعى سـد هارتا.. لا أجد إلا راحة قصيرة في تماريني وتأملاتي، وأنا بعيد عن الحكمة، وعن الخلاص بُعْد طفل في رحم أمه.. هذا هو ما أعرفه يا جوفيندا».

وفي مناسبة أخرى، عندما ترك سـد هارتا الغابة بصحبة جوفيندا لاستجداء الطعام لإخوانهما ومعلميهما، شرع سـد هارتا في الحديث وقال: «حسن يا جوفيندا، أترانا على الطريق الصحيح؟

وهل تكتسب المعرفة؟ وهل نقترب من الخلاص، أم ترانا ندور في حلقات.. نحن الذين نظن إننا نهرب من الدورة؟؟».

فقال جوفيندا: «لقد تعلمنا الكثير يا سـد هارتا.. وما زالت هناك أشياء كثيرة لنتعلمها.. ونحن لا نسير في دوائر، بل نصعد إلى أعلى. الطريق حلزوني، وقد تسلقنا فعلًا كثيرًا من الدرجات».

فأجاب سـد هارتا: «ما عمر أكبر ساماني هنا، معلمنا المبجل؟».

وقال جوفيندا: «أعتقد أن أكبرهم بلغ حوالي ستين عامًا.».

فقال سـد هارتا: «إنه في الستين من عمره، ومع ذلك لم يبلغ النرڤانا. وسيصل إلى السبعين والثمانين من عمره وأنت وأنا، سنبلغ من العمر ما بلغه، وسنصوم ونتأمل، ولكننا لن نبلغ النرڤانا سواء هو أو نحن».

«جوفيندا. إني أعتقد أن أحدًا من السامانا لن يصل إلى النرڤانا. إننا نلتمس ألوانًا من العزاء ونتعلم ضروبًا من الحيل نخدع بها أنفسنا، أما الشيء الجوهري- الطريق- فإننا لا نعثر عليه..».

قال جوفيندا: «لا تفه بمثل هذه العبارات المروعة يا سـد هارتا، فكيف يمكن أن يكون بين هؤلاء العلماء جميعًا، وهؤلاء البراهمة والزُّهاد والسامانا الأجلاء، وبين كل أولئك الباحثين، والذين كرسوا أنفسهم للحياة الباطنة.. بين كل هؤلاء الأشخاص المقدسين.. كيف لا يوجد بين هؤلاء جميعًا شخص واحد لا يجد

الطريق الصحيح؟».

ومهما يكن من أمر، فقد أجاب سـد هارتا بصوت يحتوي على الحزن بقدر ما يحتوي على التهكم.. بصوت هادئ، حزين إلى حد ما، مازح إلى حد ما:

«قريبًا سيترك صديقك- أي جوفيندا- طريق السامانا التي سافر فيها معك طويلًا.. إنني أعاني من الظمأ يا جوفيندا. وفي هذا الطريق الساماني الطويل، لم يخف ظمأي. لقد تعطشت دائمًا إلى المعرفة، وكنت مليئًا بالأسئلة دائمًا وأبدًا. وطفقت أسأل البراهمة عامًا بعد عام، ثم أخذت أسأل كتب الڤيدا المقدسة عامًا إثر عام، وربما كان من الخير أيضًا، ومن الذكاء والقداسة أيضًا لو أنني سألت- يا جوفيندا- الخراتيت أو القرود. لقد أنفقت وقتًا طويلًا ولم أنته بعد- أي جوفيندا- لكي أتعلم هذا: إن الإنسان لا يستطيع أن يتعلم شيئًا. ففي ماهية الأشياء على ما أعتقد، يوجد شيء ما لا نستطيع أن نسميه تعلمًا. هناك يا صديقي معرفة واحدة- توجد في كل مكان- إنها إنسان، إنها فيَّ وفيك وفي كل مخلوق. وقد بدأت أعتقد أنه لا يوجد عدو لهذه المعرفة أسوأ من رجل المعرفة، ومن المتعلم».

وهناك وقف جوفيندا ساكنًا في الطريق ثم رفق راحتيه قائلًا: «سـد هارتا لا تغم صديقك بمثل هذا الكلام.. أجل إن كلماتك تزعجني.. تفكر أي معنى يمكن أن يكون لصلواتنا المقدسة، ولتوقير

البراهمة، ولقداسة السامانا إذا لم يكن هناك- كما تقول- أي تعلم؟ ماذا يمكن أن تصير إليه الأشياء جميعًا، وماذا سيكون مقدسًا على الأرض، وأي شيء سيكون ثمينًا جديرًا بالعبادة؟».

وغمغم جوفيندا بيتًا من الشعر في نفسه، بيتًا من أحد الأوبانيشاد: «إن من تغوص روحه الطاهرة المتأملة في أَتمان، يذوق نعيمًا لا تعبر عنه الكلمات».

وأخلد سـد هارتا إلى الصمت.. كان يتأمل الأقوال التي نطق بها جوفيندا. وقف صامتًا مطرق الرأس.. أجل ماذا سيبقى من كل ما نعتقد أنه مقدس بالنسبة إلينا؟ ماذا سيبقى؟ بِمَ سنحتفظ؟ هزَّ رأسه.

وكان الشابان قد سمعا ذات مرة، وهما يعيشان مع السامانا بعد حوالي ثلاثة أعوام ويشاطرانهم طقوسهم، سمعا من مصادر كثيرة إشاعة، وتقريرًا. لقد ظهر شخص يدعى «جوتاما» المستنير بوذا.. انتصر في نفسه على أحزان العالم، وأوقف عجلة العودة إلى الميلاد. وكان يجوب البلاد واعظًا يحوطه تلاميذه، لا يملك مالًا ولا دارًا ولا زوجًا. يرتدي عباءة الزاهد الصفراء ولكنه يملك جبينًا أشم.. فهو رجل مقدس، ينحني له البراهمة والأمراء ويصيرون من تلاميذه.

وهذا التقرير، وهذه الإشاعة، وهذه القصة تداولتها الأسماع، وانتشرت هنا وهناك. وكان البراهمة يتحدثون عنها في المدينة،

والسامانا يحكونها في الغابة. وبلغ اسم «جوتاما» المستنير أسماع الشابين مشفوعًا بالمدح أو القدح، بالثناء أو الهجاء...

وكما يجتاح البلاد وباء، وتنتشر الشائعات بأن هناك رجلًا.. رجلًا حكيمًا، رجلًا عالمًا، تكفي كلماته وأنفاسه لشفاء المكلومين، وكما تنتقل القصة من أقصى البلاد إلى أدناها فيتحدث عنها كل إنسان، فكذلك يصدقها كثيرون، ويرتاب فيها كثيرون. ومهما يكن من أمر، فقد مضى كثيرون في سبيلهم على الفور بحثًا عن الرجل الحكيم والمحسن الكريم. وعلى هذا النحو طارت تلك الشائعة، هذه القصة السعيدة عن جوتاما المستنير «بوذا»، الرجل الحكيم المنحدر من سلالة ساكيا في أنحاء البلاد جميعًا. وكان المؤمنون به يقولون إنه على معرفة واسعة، وإنه يتذكر حيواته السابقة، وإنه بلغ النرڤانا، ومن ثم، لم يعد إلى الدورة، وإنه لن يخوض مرة أخرى في تيار الصور العَكِر. وقد رويت عنه أمور كثيرة عجيبة تجل عن التصديق، فقد أتى بالأعاجيب، وهزم الشيطان، وكلَّم الآلهة. أما أعداؤه والمتشككون فيه، فيقولون إن هذا «الجوتاما» خدعة لا أساس لها من الصحة، وإنه يقضي أيامه في بذخ مسرف، ويزدري القرابين، ولا شأن له بالعلم، ولا يعرف العبادات أو إماتة الجسد.

وكانت الشائعات المنتشرة حول بوذا تبدو جذابة وكأنما يسري شيء من السحر في هذا القصص.. فقد كان العالم عليلًا، والحياة

عسرة، وهنا يلوح أمل جديد، ورسالة جديدة مريحة، حنون، حافلة بالوعود العذبة. وفي كل مكان، كانت تنتشر الشائعات حول بوذا، والشبان في كل أرجاء الهند يستمعون ويشعرون بالحنين والأمل.

وبين أبناء البراهمة في المدن والقرى، كانوا يرحبون بكل مسافر وغريب ما دام يحمل أخبارًا عنه.. عن المستنير ساكياموني..

وتناهت الشائعات إلى مسامع السامانا في الغابة، وكذلك بلغت سـد هارتا وجوفيندا رويدًا رويدًا، وكل نبأ صغير حافل بالأمل، حافل بالشك. وقلما كانا يتحدثان عنه، فقد كان الساماني الأكبر عدوًّا لهذه الشائعة. فقد سمع أن هذا البوذا المزعوم كان زاهدًا فيما سبق، وأنه عاش في الغابات، ثم عاد إلى حياة الترف، وإلى ملذات الحياة، ولهذا لم يكن يؤيد هذا الجوتاما..

وذات مرة قال جوفيندا لصديقه:

«سـد هارتا، لقد كنت اليوم في القرية، ودعاني أحد البراهمة لدخول بيته، وفي البيت كان هناك ابن أحد البراهمة قادمًا من ماجاذا، وقد شاهد بوذا بعينيه، واستمع إليه وهو يعظ. والحق إنني ملئت شوقًا وفكرت: حبذا لو عشت أنا وسـد هارتا لنرى ذلك اليوم الذي نستطيع فيه الاستماع إلى التعاليم من شفتي «الكامل». صديقي ألن نذهب نحن أيضًا إلى هناك لنستمع إلى التعاليم من شفتي بوذا؟».

فقال سـد هارتا: «ظننت دائمًا أن جوفيندا سيبقى مع السامانا..

وكنت أعتقد دائمًا أن هدفه هو أن يبلغ ستين وسبعين سنة من عمره وهو يمارس الفنون والتمارين التي يلقنها السامانا. ولكن ما أقل معرفتي بجوفيندا.. ما أقل معرفتي بما يدور في قلبه! والآن تريد يا صديقي أن تسلك طريقًا جديدًا.. وأن تمضي فيه لتستمع إلى تعاليم بوذا».

قال جوفيندا: «إنه ليسرك أن تسخر مني. لا بأس عليك إن فعلت يا سـد هارتا. ألا تشعر أنت أيضًا بشوق، برغبة في الاستماع إلى تلك التعاليم؟ ألم تقل لي ذات مرة إنني لن أمضي في طريق السامانا أبعد من ذلك؟».

وهنا أطلق سـد هارتا ضحكة امتزجت فيها ظلال الأسى وظلال السخرية وقال: «لقد أحسنت القول يا جوفيندا، وأحسنت التذكر. ولكن ينبغي أن تتذكر أيضًا ما أخبرتك به، وهو أنني قد أصبحت قليل الثقة بالتعاليم والعلم، وإنني قليل الإيمان بالكلمات التي تأتي إلينا من المعلمين. ولكن حسن يا صديقي.. أنا على استعداد للاستماع إلى التعاليم الجديدة، وإن كنت أعتقد في قرارة نفسي أننا قد تذوقنا فعلًا أفضل ثمارها».

فأجاب جوفيندا: «يسرني أنك وافقت. ولكن أخبرني.. كيف يمكن أن تفضي إلينا تعالم «جوتاما» بأنفس ثمارها قبل أن نصغي إليها؟».

قال سـد هارتا: «دعنا نستمتع بهذه الثمرة يا جوفيندا انتظارًا لمزيد من الثمار.. هذه الثمرة التي ندين بها لجوتاما فعلًا تكمن في هذه الحقيقة، وهي أنه قد أغرانا بالانفصال عن الساماتا. أما إن كان هناك ثمار أخرى أفضل، فدعنا ننتظر صابرين لنرى..» وفي ذلك اليوم نفسه أبْلغ سـد هارتا كبير الساماتا بعزمه على الرحيل.. وقد أفضى إلى الرجل العجوز بهذا القرار في أدب وتواضع يليقان بالشبان الصغار والتلاميذ.. بيد أن الرجل العجوز أغضبه أن كلًّا من الشابين يريد أن يتركه، فرفع صوته وأنبهما بشدة..

وارتاع جوفيندا. غير أن سـد هارتا مال بشفتيه على أذن جوفيندا وهمس قائلًا: «الآن سأظهر للشيخ العجوز على أنني تعلمت منه شيئًا».

ووقف على مقربة من الساماني وقد ركَّز ذهنه، ونظر في عيني الشيخ العجوز، وقيده بنظراته وأخمد مقاومته، وأسكته، وتغلب على إرادته، وأمره صامتًا أن يفعل ما يشاء منه. وأخلد العجوز إلى الصمت، وانسدلت على عينيه غشاوة، وشُلَّت إرادته، وتدلت ذراعاه، وأصبح بلا حول ولا قوة تحت سحر سـد هارتا.. لقد استولت أفكار سـد هارتا على أفكار الساماني فكان عليه ن يفعل ما يؤمر به. وهكذا انحنى الرجل العجوز عدة مرات، ومنح بركاته، وتمتم تمنياته برحلة طيبة؛ فشكره الشابان على تمنياته الطيبة..

وبادلاه الانحناءة، ثم شرعا في الرحيل..

وفي الطريق قال جوفيندا: «لقد تعلمت يا سـد هارتا من السامانا أكثر مما ظننت. فمن العسير غاية العسر، أن تقوم بتنويم ساماني عجوز. والحق أنك لو مكثت هناك لتعلمت سريعًا كيف تمشي على الماء..».

وقال سـد هارتا: «ليست بي رغبة للسير على الماء.. دع شيوخ السامانا يرضون أنفسهم بأمثال تلك الحيل».

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

جوتاما

في قرية «سافاني»، كان كل طفل يعرف اسم «بوذا» الجليل، وكان كل بيت على استعداد لملء جفنات الحسنات لأتباع «جوتاما» المتسولين في صمت. وعلى مقربة من القرية، كان مقر «جوتاما» المفضل هو بستان «جيتاڤانا» الذي أهداه إليه وإلى أتباعه التاجر الثري أناثا بينديكا، وكان نصيرًا كبيرًا للمستنير.

وكان الشابان الزاهدان قد أحيلا في بحثهما عن مقر «جوتاما» إلى هذا الحي بفضل الحكايات والإجابات التي تلقياها عن أسئلتهما.

وعند وصولهما إلى «سافاني»، قدم إليهما الطعام فورًا عند أول بيت وقفا أمام بابه يستجديان في صمت.. فتقاسما الطعام، وسأل

«سـد هارتا» السيدة التي قدمته إليهما: «أيتها السيدة الطيبة، إننا نود أن نعرف أين يقيم بوذا الجليل، فنحن اثنان من السامانا أقبلنا من الغابة لنرى «الكامل» ونصغي إلى تعاليمه صادرة من شفتيه هو نفسه».

فقالت المرأة: «لقد جئتما إلى المكان الصحيح.. أيها السامانيان القادمان من الغابة. إن المستنير يقطن في جيتاڤانا، في حديقة أناثا بينديكا. وتستطيعان قضاء الليل هناك أيها المهاجران، فهناك متسع للأفواج التي تتدفق للاستماع إلى التعاليم من شفتيه».

وتهلل وجه جوفيندا وقال مسرورًا: «آه، إذن فقد بلغنا غايتنا، وانتهت رحلتنا. ولكن أخبرينا- يا أم الحجيج- هل تعرفين بوذا؟ هل رأيته بعينيك هاتين؟».

فقالت المرأة: «لقد رأيت المستنير مرارًا. وما أكثر الأيام التي أبصرته فيها يتجول في الشوارع صامتًا في عباءته الصفراء باسطًا جفنة الحسنات عند أبواب المنازل، ليعود بها مليئة».

وأنصت جوفيندا مبهورًا. فأراد أن يوجه أسئلة أخرى كثيرة، وأن يسمع الكثير، غير أن سـد هارتا ذكَّره بأن الوقت قد حان للرحيل. فشكرا المرأة، وانطلقا. ولم تدع الحاجة إلى الاستفسار عن الطريق، فقد كان هناك عدد من الحجاج والرهبان من أتباع «جوتاما»، في طريقهم إلى جيتاڤانا. وعندما وصلا بعد هبوط الليل، استمر وصول

الأفواج الجديدة، فانبعثت جلبة من الأصوات المتسائلة التي تطلب المأوى وتحصل عليه. وسرعان ما عثر السامانيان اللذان تعودا حياة الغابة على المأوى، فمكثا هناك حتى الصباح.

ومنذ شروق الشمس، أدهشتهما رؤية العدد الكبير من المؤمنين والفضوليين الذين قضوا الليل هناك. وكان الرهبان في أرديتهم الصفراء يذرعون ممرات الأيكة البديعة، أو يجلسون هنا وهناك تحت الأشجار، غارقين في التأمل، أو مشتبكين في حديث محتدم. وكانت الحدائق الوارفة الظلال أشبه بمدينة تعج بالنحل. وما لبث معظم الرهبان أن غادروا المكان، يحملون جفناتهم للحصول على طعام وجبة الظهيرة، وهي وجبتهم الوحيدة طيلة اليوم. وحتى بوذا نفسه ذهب يستجدي في الصباح.

ورآه سـد هارتا، فتعرف عليه فورًا، وكأنما أشار عليه إله.. رآه حاملًا جفنتيه، مبارحًا المكان في هدوء، رجلًا متواضعًا يرتدي قلنسوة صفراء.

قال سـد هارتا في رفق لجوفيندا: «انظر.. ها هو ذا بوذا»! ونظر جوفيندا متفحصًا الناسك ذا القلنسوة الصفراء الذي لا يمكن تمييزه بأي شيء عن مئات النساك الآخرين. ومع ذلك فقد تعرف عليه جوفيندا في الحال.. أجل ها هو ذا.. وها هما يتبعانه ويراقبانه.

ومضى بوذا هادئًا في سبيله، مستغرقًا في خواطره. ولم تكن

ملامحه الوديعة سعيدة أو حزينة، بل كان يبدو عليه أنه يبتسم في لطف من الداخل. وبابتسامة مستسرة لا تختلف عن ابتسامة طفل موفور الصحة، مضى في سيره هادئًا وادعًا. كان يرتدي عباءته، ويمشي كما يمشي النساك الآخرون تمامًا.. غير أن محياه، ومشيته، ونظراته الخفيضة الوادعة، ويده المدلاة المسالمة، وكل أصبع في راحته يتحدث عن السلام والاكتمال، لا يسعى إلى شيء، ولا يحاكي شيئًا، وإنما يعكس هدوءًا متصلًا، ونورًا لا يخفت، وسلامًا لا سبيل إلى النيل منه.

وهكذا أخذ جوتاما يتجول في المدينة استجداءً للحسنات. ولم يتعرف عليه السامانيان إلا بهيئته التي يشع منها السلام الكامل، وبشكله الذي يتسم بالسكون، فلا أثر فيه للسعي أو الإرادة أو التظاهر أو المجهود، نور وسلام فحسب.

قال جوفيندا: «اليوم سوف نستمع إلى التعاليم من شفتيه».

فلم يرد عليه «سـد هارتا»، ذلك أنه لم يكن متلهفًا على سماع التعاليم، ولم يخطر له على بال أنه سيتعلم منها شيئًا جديدًا. لقد استمع هو وجوفيندا إلى جوهر تعاليم بوذا، وإن كان ذلك عن روايات غير مباشرة، ولكنه نظر متمعنًا إلى رأس جوتاما، إلى منكبيه، وإلى قديمه، وإلى يده الساكنة المدلاة إلى جانبه، وخيل إليه أن في كل مفصل من أنامله تستقر المعرفة.. إنها تتحدث، تتنفس،

تشع حقيقة.. إن هذا الرجل، هذا البوذا، رجل مقدس حقًّا حتى أطراف أصابعه، وسـد هارتا لم يبجِّل في حياته كلها رجلًا مثل هذا التبجيل، ولم يحب رجلًا مثل هذا الحب.

وسار الاثنان في أعقاب بوذا حتى دخل المدينة، وعادا منها في سكون.

وكانا ينويان الصوم عن الطعام ذلك اليوم، وشاهدا جوتاما وهو يعود، وشاهداه وهو يتناول وجبته في حلقة من أتباعه. وكان ما أكله لا يكفي عصفورًا. ثم شاهداه، وهو ينسحب إلى ظلال شجرة المانجو.

وفي المساء، عندما تلطفت حدة الحرارة، واجتمع كل من في المعسكر وأرهف أذنيه، سمعا بوذا وهو يلقي موعظته، وتناهى إليهما صوته.. وكان هذا أيضًا كاملًا، هادئًا مفعمًا بالسلام. كان «جوتاما» يتحدث عن العذاب، وعن أصل الشقاء، وطريقة التحرر منه. كانت الحياة ألمًا، وكان العالم مليئًا بالشقاء، بيد أن السبيل إلى التحرر من الشقاء قد تم العثور عليه. والخلاص ينتظر أولئك الذين يتبعون سبيل بوذا.

وكان المستنير يتحدث بصوت ناعم ولكنه حازم، وكان يعلم النقاط الأربع الرئيسية، ويعلم الطريق ذا الشعب الثمانية، وفي صبر، كان يغطي منهج التعليم المعتاد بالأمثلة والتكرار. وكان صوته يصل

إلى مستمعيه واضحًا صافيًا كالنور، كنجم سابح في السماء.

فلما انتهى بوذا من موعظته، وكان الليل قد ألقى مراسيه، تقدم كثير من الحجاج مطالبين بقبولهم في صفوف الجماعة، فأعلن بوذا قبولهم قائلًا: «لقد أصغيتم جيدًا إلى التعاليم فانضموا إلينا إذن، وخذوا نصيبكم من السعادة، وضعوا حدًّا للشقاء».

وحتى جوفيندا- ذلك الشاب الخجول- تقدم قائلًا: «وأريد أنا أيضًا أن أعلن ولائي للمستنير وتعاليمه».

وطلب الانضمام إلى الجماعة، فأجيب إلى طلبه.

وما إن انسحب «بوذا» لقضاء ليلته حتى التفت جوفيندا إلى «سـد هارتا» قائلًا في لهفة: «ليس لي أن ألومك يا سـد هارتا. لقد استمعنا معًا إلى المستنير، وأصغينا معًا إلى تعاليمه. أما جوفيندا فقد استمع إلى التعاليم وقبلها، ولكن أنت، يا صديقي العزيز، ألا تريد أن تطأ سبيل الخلاص أنت أيضًا؟ هل ستتأخر، وهل ما زلت تنتظر؟».

وعندما سمع «سـد هارتا» كلمات جوفيندا استيقظ كأنما كان نائمًا. فنظر طويلًا إلى وجه جوفيندا، ثم تحدث متئدًا وقد خلا صوته من كل سخرية:

«جوفيندا صديقي، لقد خطوت خطوتك، واخترت طريقك. لقد كنت دائمًا صديقي يا جوفيندا، وكنت تخطو دائمًا خلفي. وكثيرًا ما فكرت: أيتخذ جوفيندا خطوة دوني نابعة من اقتناعه الخاص؟

وأنت الآن رجل، فقد اخترت سبيلك. فهلا مضيت فيه إلى النهاية يا صديقي لعلك تجد الخلاص!».

ولم يستوعب جوفيندا هذا الكلام. فأعاد سؤاله نافد الصبر: «تكلم، يا صديقي العزيز، قل إنك لا تستطيع إلا أن تقسم على الولاء لبوذا».

ووضع سـد هارتا كفه على كتف جوفيندا: «لقد سمعتني أباركك يا جوفيندا.. وها أنذا أردد قولي. فلتمض في الطريق إلى نهايته، وليكن الخلاص من نصيبك».

وفي هذه اللحظة أدرك جوفيندا أن صديقه يفترق عنه فطفق يبكي، وصاح: «سـد هارتا!».

وتحدث إليه «سـد هارتا» متلطفًا: «لا تنس يا جوفيندا أنك تنتمي الآن إلى رجال بوذا المقدسين. وقد هجرت بيتك وأهلك ونبذت أصلك وما تملك، بل تخليت عن إرادتك ونزلت عن الصداقة.. هذا ما تدعو إليه التعاليم وهذه هي إرادة المستنير. وغدًا سوف أفترق عنك يا جوفيندا..».

وظل الصديقان يتسكعان في الغابة وقتًا طويلًا. ورقدا طويلًا ولكنهما لم يتمكنا من النوم، وألح جوفيندا على صديقه مرة بعد أخرى أن يصارحه بما دفعه إلى الامتناع عن اتباع تعاليم بوذا، وأي عيب يراه فيه.. بيد أن سـد هارتا كان يصرفه في كل مرة: «اطمئن

يا جوفيندا، إن تعاليم المستنير سليمة جدًّا، فكيف أجد فيها ما يعيبها؟».

وفي الصباح الباكر ذهب واحد من أتباع بوذا، واحد من أكبر نساكه سنًّا- إلى الحديقة، ودعا إليه كل الأشخاص الجدد الذين حلفوا يمين الولاء للتعاليم، لكي يخلع عليهم العباءة الصفراء، ولكي يلقنهم التعاليم الأولى وواجبات الطريقة، ولم يلبث جوفيندا أن انصرف عنهم، فعانق رفيق صباه، ثم ارتدى عباءة الناسك.

وأخذ سـد هارتا يتجول خلال الأيكة غارقًا في عميق أفكاره..

وهناك التقى بجوتاما، المستنير، وما إن حياه باحترام، وشاهد على وجه بوذا تعبيرًا زاخرًا بالطيبة والسلام، حتى استجمع الشاب شجاعته، واستأذن المستنير أن يتحدث إليه، فأطرق المستنير برأسه صامتًا علامة على الموافقة.

قال سـد هارتا: «بالأمس، كان من دواعي سروري- أيها المستنير- أن أستمع إلى تعاليمك المدهشة.. وكنت قد أتيت من بعيد أنا وصديقي للاستماع إليك، والآن سيبقى صديقي معك، فقد أقسم يمين الولاء لك. أما أنا فأواصل رحلتي من جديد».

قال المستنير في أدب: «لك ما تشاء».

وواصل سـد هارتا حديثه قائلًا: «ربما كان حديثي أجرأ من اللازم، ولكنني لا أريد أن أترك المستنير دون أن أنقل إليه أفكاري

بأمانة. فهلّا استمع إليّ المستنير فترة أطول قليلًا».

وأطرق بوذا موافقًا في صمت.

قال سـد هارتا: «أيها المستنير، أعجبتني تعاليمك في شيء واحد فوق كل شيء.. كل شيء كامل الوضوح.. تدعمه البراهين، وأنت تصور العالم بوصفه سلسلة كاملة لا انقطاع فيها.. سلسلة أبدية تترابط بالعلة والمعلول. إن العالم لم يُعْرض قط بمثل هذا الوضوح، ولم تتم البرهنة عليه أبدًا بمثل هذه البراهين التي لا تُدحض. وليس من شك أن قلب كل برهمي ستزداد سرعة دقاته عندما ينظر إلى العالم من خلال تعاليمك، فيجده متلاحمًا تلاحمًا تامًّا، دون أية ثغرة، صافيًا كالبلور، لا يعتمد على المصادفة، ولا يعتمد على الآلهة. وسواء أكان ذلك خيرًا أم شرًّا، وسواء أكانت الحياة في ذاتها ألمًا أم لذة، وسواء أكان ذلك غير يقيني- أي حتى إن كان الأمر كذلك، فليس مهمًا- ولكن وحدة العالم وتلاحم الأحداث جميعًا، واشتمال كل كبيرة وصغيرة في تيار واحد، في قانون واحد، في قانون واحد للعلية، للصيرورة والفناء: هذا كله يسطع واضحًا من تعاليمك السامية، أيها الكامل. غير أن هذه الوحدة وهذا السياق المنطقي للأشياء جميعًا يتحطم- وفقًا لتعاليمك- في مكان واحد.. فمن خلال فجوة صغيرة يندفع إلى عالم الوحدة شيء غريب، شيء جديد.. شيء لم يكن هناك من قبل، ولا سبيل إلى إثباته أو البرهنة

عليه. أعني مذهبك في الارتفاع فوق العالم، في الخلاص. فبهذه الفجوة الصغيرة، ومن خلال هذا الصدع الضيق، يتحطم قانون العالم الأبدي الفريد مرة أخرى.. سامحني إن أنا أثرت هذا الاعتراض..».

واستمع جوتاما في هدوء وبلا حراك. والآن جاء دور «الكامل» ليتحدث في صوت عطوف مهذب صاف: «لقد أنصت جيدًا إلى التعاليم يا ابن البرهمي. ومما يحسب لك أنك فكرت فيها بمثل هذا العمق.. وقد وجدت فيها عيبًا، فكر في ذلك مرة أخرى، ودعني أحذرك أنت المتعطش إلى المعرفة، من دغل الآراء، وتضارب الألفاظ. الآراء لا تعني شيئًا، قد تكون جميلة أو قبيحة، ذكية أو حمقاء..وكل إنسان يستطيع أن يحتضنها، أو يرفضها. والتعاليم التي استمعت إليها ليست رأيي على كل حال، وليس هدفها أن تفسر العالم لأولئك المتعطشين إلى المعرفة.. إن هدفها جد مختلف، هدفها هو الخلاص من الألم.. هذا هو ما يبشر به جوتاما ولا شيء سواه».

وقال الشاب: «لا تغضب مني أيها المستنير. أنت على حق عندما تقول إن الآراء لا تعني إلا قليلًا، ولكن هل لي أن أقول شيئًا آخر، أنا لا أشك فيك لحظة واحدة، ولا أشك في أنك بوذا لحظة واحدة، وفي أنك بلغت الهدف الأسمى الذي تجاهد الآلاف المؤلفة من البراهمة وأبناء البراهمة للوصول إليه.

«ولقد فعلت ذلك ببحثك الخاص وطريقتك الخاصة من خلال الفكر والتأمل والمعرفة والاستنارة.. فأنت لم تعلم شيئًا عن طريق التعاليم- وهذا ما أعتقده- أيها المستنير- إن أحدًا لا يجد الخلاص عن طريق التعاليم، ولا تستطيع أيها المستنير أن تنقل إلى أحد بواسطة الألفاظ والتعاليم- ما حدث لك ساعة الاستنارة.. إن تعاليم المستنير بوذا تشتمل على الكثير: كيف يعيش المرء حياة صالحة، وكيف يتجنب الشر، ولكن هناك شيء واحد لا تحتويه هذه التعاليم الواضحة الجلية.. إنها لا تضم سر ما عاناه المستنير بنفسه- هو وحده بين مئات الألوف- هذا هو ما فكرت فيه وأدركته عندما أصغيت إلى تعاليمك، وهذا هو ما يدعوني إلى المضي في طريقي- لا بحثًا عن مذهب آخر أفضل. فأنا أعلم أنه لا وجود لهذا المذهب- ولكن هجرانًا لكل المذاهب ولكل المعلمين، حتى أبلغ هدفي وحدي، أو أموت دونه. بيد أنني سأتذكر دائمًا هذا اليوم- أيها المستنير- وهذه الساعة التي وقعت فيها عيناي على رجل مقدس».

وكانت عينا بوذا خفيضتين، ووجهه الذي لا يسبر غوره يعبر عن الاتزان التام. قال المستنير متمهلًا: «أرجو ألا تكون مخطئًا في استنتاجك.. فليحالفك التوفيق في بلوغ هدفك. ولكن قل لي، هل رأيت جماعتي من الرجال المقدسين، إخواني الكثيرين الذين حلفوا يمين الولاء للتعاليم؟ أو تعتقد أيها الساماني القادم من بعيد

أنه من الأفضل لهؤلاء جميعًا أن يتنكروا للتعاليم، وأن يرتدُّوا لحياة العالم والشهوات؟ فصاح سـد هارتا: «إن هذه الفكرة لم تخطر قط على بالي. فليتبعوا جميعًا تلك التعاليم وليبلغوا هدفهم. فليس من حقي أن أحكم على حياة الآخرين. وما عليّ إلا أن أحكم لنفسي. يجب عليّ أن أختار وأرفض. ونحن الساماتا نسعى إلى الانعتاق من «الذات» أيها المستنير، ولو كنت واحدًا من أتباعك، لخشيت أن يكون ذلك على السطح فحسب، وإني أخدع نفسي عندما أظن أنني في سلام مع العالم، وأنني اكتسبت الخلاص، وتكون الحقيقة هي أن «الذات» مستمرة في الحياة والنماء، إذ أكون قد تحولت إلى تعاليمك وإلى ولائي وحبي لك ولطائفة النسّاك». وبنصف ابتسامة، وفي إشراق ومودة لا يعكر صفاءهما شيء، نظر بوذا في ثبات إلى الشاب الغريب، وصرفه بحركة لا تكاد ترى..

ومضى بوذا مبتعدًا، غير أن نظرته ونصف ابتسامته بقيتا مطبوعتين في ذاكرة سـد هارتا إلى الأبد، وقال في نفسه: إنني لم أشاهد في حياتي أبدًا شخصًا ينظر ويبتسم، يجلس ويمشي، مثل هذا الرجل. وإنني لأحب أنا أيضًا أن أنظر وأبتسم، وأجلس وأمشي مثل هذا، متحررًا، نبيلًا، رابط الجأش، صريحًا، طفوليًّا، غامضًا في وقت معًا. فلا ينظر إنسان ويمشي على هذا النحو إلا إذا كان قد انتصر على «ذاته»، وأنا أيضًا سأنتصر على «ذاتي».

وقال سـد هارتا في نفسه: لقد رأيت رجلًا واحدًا.. رجلًا واحدًا فحسب لا بد أن أغض من طرفي أمامه. ولن أغض من طرفي إزاء أي إنسان آخر. ولن تجتذبني تعاليم أخرى ما دامت تعاليم هذا الرجل لم تفعل ذلك..

وقال سـد هارتا في نفسه: إن بوذا قد سلبني.. لقد سلبني، ومع ذلك أعطاني شيئًا أكثر قيمة. سلبني صديقي الذي كان يؤمن بي وهو الآن يؤمن به.. لقد كان ظلي وهو الآن ظل جوتاما. ولكنه أعطاني سـد هارتا، أعطاني نفسي..

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

اليقظة

عندما غادر «سـد هارتا» البستان الذي بقي فيه بوذا الكامل، وبقي فيه جوفيندا، أحس أنه ترك أيضًا حياته السابقة وراء ظهره في البستان.. وكانت رأسه مليئة بهذه الفكرة وهو يمضي متثاقلًا في طريقه.. كان يفكر مليًا حتى استولى عليه هذا الشعور من جميع أقطاره، وبلغ نقطة أدرك عندها الأسباب، ذلك أن إدراك الأسباب معناه أن يفكر، على ما يبدو له، ومن خلال التفكير وحده تتحول المشاعر إلى معرفة، فلا يكون نصيبها الضياع، بل تصبح شيئًا واقعًا، وتبدأ في النضج.

كان سـد هارتا يفكر تفكيرًا عميقًا وهو يمضي في سبيله.. فأدرك أنه لم يعد شابًا، بل أصبح الآن رجلًا، وأدرك أن شيئًا ما قد

بارحه كالجلد القديم الذي يخلعه الثعبان.. شيئًا لم يعد فيه الآن، شيئًا صاحبه في شبابه وكان جزءًا منه، هذا الشيء هو أن يكون له معلمون، وأن يستمع إلى تعاليمهم. لقد ترك الآن آخر معلم صادفه، حتى وإن كان هو، أعظم وأحكم مدرس، أقدسهم جميعًا.. بوذا.. كان لا بد أن يتركه فهو لا يستطيع أن يقبل تعاليمه..

ومضى المفكر في سبيله متمهلًا، وتساءل: ما هذا الذي كنت تريد أن تتعلمه من التعاليم والمعلمين؟ ومع أنهم قد علموك الكثير، فما ذلك الشيء الذي لم يستطيعوا تعليمه إياك؟ وهداه تفكيره إلى أنها «الذات». هي شخصية وطبيعية ما أردت أن أتعلمه. لقد أردت أن أخلِّص نفسي من «الذات»، وأن أتغلب عليها، ولكنني لم أستطع، كل ما استطعته هو أن أخدع نفسي، وأن أهرب منها، وأن أتخفى عنها. حقًّا إن شيئًا في هذا العالم لم يشغل أفكاري كما شغلته «الذات»، هذا اللغز.. لغز إنني أحيا، وإنني واحد ومنفصل ومختلف عن كل شيء سواي، إنني سد هارتا. وما أعرفه عن نفسي، عن سد هارتا، أقل مما أعرفه عن أي شيء آخر في العالم.

وفجأة تسمر المفكر الذي كان ماضيًا ببطء في طريقه، وقد أمسكت بتلابيبه هذه الفكرة.. ومنها انبثقت على الفور فكرة أخرى: إن السبب الذي جعلني جاهلًا بنفسي، السبب الذي أبقى سد هارتا غريبًا مجهولًا من نفسي، يرجع إلى شيء واحد.. إلى شيء واحد

فحسب، هو أنني كنت خائفًا من نفسي، كنت أهرب من نفسي.. كنت أبحث عن «براهما»، عن «أتمان»، وأردت أن أحطم نفسي، وأن أهرب منها، حتى أجد في الأعماق المجهولة نواة الأشياء جميعًا، أتمان، الحياة، الإلهي، المطلق، ولكنني بصنيعي ذاك، فقدت نفسي في الطريق. وصَعَّد سد هارتا بصره، وتلفت حواليه، وتسللت ابتسامة على وجهه، وشاع في كيانه مباشرة شعور قوي باليقظة من حلم طويل، فواصل سيره مسرعًا هذه المرة كرجل يعرف ما ينبغي عليه أن يصنع.

أجل.. لن أحاول بعد الآن الهروب من سد هارتا.. وتنفس نفسًا عميقًا.. لن أكرس أفكاري بعد اليوم لأتمان، أو لأحزان العالم، ولن أشوه نفسي أو أحطمها بحثًا عن سر تحت الحطام. لن أدرس بعد اليوم يوجا- ڤيدا، أو أتارفا- ڤيدا، أو الزهد، أو أية تعاليم أخرى.. سأتعلم من نفسي، سأكون تلميذ نفسي.. سأتعلم من نفسي سر سد هارتا..

وتلفت حوله كأنما يرى العالم لأول مرة، كانت الدنيا جميلة، غريبة غامضة. هنا تشيع الزرقة، وهنا تنتشر الصفرة.. وهنا تموج الخضرة.. وهنا السماء والنهر، الغابات والجبال، كلها جميلة، غامضة، مسحورة، وفي وسط هذا كله كان هو سد هارتا، المستيقظ، في طريقه إلى نفسه.. كل هذا، كل هذه الصفرة والزرقة، النهر

والغابة.. تمر للمرة الأولى أمام عيني سـد هارتا. إنها لم تعد سحر الوهم «مارا»، ولم تعد حجب المايا «الخداع والزيف».. إنها لم تعد خالية من المعنى أو مصادفة التنوعات التي تنسج مظاهر العالم والتي يزدريها البراهمة- المتعمقون في الفكر، الذين يحتقرون التنوع، ويلتمسون الوحدة- لنهر هو النهر، وإذا كان «الواحد» و«الإلهي» في سـد هارتا هو الذي يعيش سرًّا في الزرقة والنهر، فإن الفن الإلهي والقصد الإلهي هو الذي قضى بأن يكون هناك أصفر وأزرق، سماء وغابة، وأن يكون هنا سـد هارتا. إن المعنى والحقيقة لا يحتجبان في مكان ما وراء الأشياء.. وإنما هما في الأشياء، فيها جميعًا.

كم كنت أصم وغبيًّا، هكذا قال وهو يمضي مسرعًا: عندما يقرأ أحد أي شيء يريد أن يدرسه، فإنه لا يحتقر الحروف وعلامات التنقيط فيدعوها وهمًا ومصادفة وأصدافًا فارغة، ولكنه يقرأها ويدرسها ويحبها حرفًا حرفًا. أما أنا الذي يريد أن يقرأ كتاب الوجود، وكتاب طبيعتي أنا الخاصة.. فأدّعي احتقار الحروف والعلامات، وأسمي عالم الظواهر وهمًا، وأدعو عيني ولساني، صدفة. والآن انتهى كل شيء، فقد استيقظت، لقد استيقظت حقًّا، ولم أولد إلا اليوم فحسب..

ولكن.. بينما كانت هذه الخواطر تعبر ذهن سـد هارتا، توقف فجأة وكأنما اعترض طريقه ثعبان..

وفجأة أيضًا اتضحت له هذه الفكرة: إنه ينبغي عليه وهو الذي استيقظ في الحقيقة، أو وُلِد من جديد، أن يبدأ حياته بداية جديدة تمامًا. وعندما ترك بستان جيتاثانا ذلك الصباح، بستان المستنير.. بعد أن استيقظ فعلًا، اتجهت نيته، وكان هذا هو الطريق الطبيعي بالنسبة إليه بعد سنوات الزهد- إلى العودة إلى بيته وإلى أبيه- ولكنه الآن في هذه اللحظة التي يقف فيها جامدًا كأنما يعترض سبيله ثعبان، خطرت له هذه الفكرة أيضًا: إنني لم أعد كما كنت، لم أعد زاهدًا أو كاهنًا أو برهميًّا، فماذا سأصنع في البيت مع أبي؟ أدرس؟ أقدم القرابين؟ أمارس التأمل؟ لقد انتهى هذا كله بالنسبة إليَّ الآن.

وقف سـد هارتا ساكنًا، وأخذته رعشة ثلجية لم تستمر سوى لحظة، وانتابته رجفة داخلية، كأنه حيوان صغير أو عصفور أو أرنب بري، عندما أدرك كم هو وحيد، لقد عاش بلا مأوى أعوامًا طوالًا، ولكنه لم يشعر بمثل ما يشعر به الآن.. كان فيما سبق عندما يستغرقه التأمل العميق، عندما كان ابن أبيه، كان برهميًّا ذا مكانة رفيعة، رجلًا من رجال الدين، أما الآن فلم يعد إلا سـد هارتا فحسب.. المستيقظ، ولا شيء غير ذلك. وأخذ أنفاسًا عميقة، فارتعشت أطرافه لحظة، إن أحدًا لا يعاني من الوحدة ما يعانيه. لم يكن نبيلًا ينتمي إلى أية أرستقراطية، أو صانعًا ينتمي إلى أية طائفة من الصناع يلوذ بها ويشاطرها حياتها ولغتها، ولم يكن برهميًّا يشارك في حياة البراهمة، أو زاهدًا ينتسب إلى السامانا.. بل إن أكثر النساك انعزالًا

في الغابات، لم يكن فردًا وحيدًا لأنه ينتمي أيضًا إلى فئة من الناس. لقد أصبح جوفيندا ناسكًا، وآلاف من النساك قد صاروا إخوانه يرتدون نفس العباءة ويشاطرونه نفس المعتقدات ويتحدثون لغته. أما هو «سـد هارتا»، فإلى من ينتمي؟ ومن ذا الذي يشاطره حياته؟ ولغة من تلك التي يتحدثها؟

وفي هذه اللحظة، عندما أخذت الدنيا تذوب من حوله، وعندما وقف وحيدًا كالنجم في السماء، طغى عليه شعور من يأس ثلجيّ، ولكنه كان نفسه في حزم أكثر من أي وقت مضى. كانت هذه آخر رعدة صاحبت يقظته.. إنها آلام الميلاد الأخيرة.. واستأنف سيره على الفور وبدأ يمشي سريعًا نافد الصبر.. غير متجه إلى بيته، أو متجه إلى أبيه.. أو ناظرًا إلى الوراء.

* * *

الفصل الخامس

كمـــاله

كان سـد هارتا يتعلم شيئًا جديدًا في كل خطوة يخطوها في طريقه، ذلك أن العالم قد تحول في ناظريه، وكان به مبهورًا.

رأى الشمس تشرق فوق الغابة والجبال، وتغرب فوق الشاطئ النخيلي البعيد. وفي الليل كان يرى النجوم في السماء، والقمر الذي يشبه المنجل طافيًا كالزورق فوق ثبج الموج الأزرق..

ورأى الأشجار والنجوم والحيوان، والسحب وأقواس قزح، والصخور، والأعشاب والأزهار والجداول والأنهار وألق الندى على الآكام في الصباح، والجبال النائية زرقاء شاحبة. وكانت الطيور تغرد، والنحل يطن، والريح تهب واهنة خلال حقول الأرز..

كان هذا كله مصطبغًا بالألوان، وفي آلاف الأشكال المختلفة هناك دائمًا وأبدًا.. ولقد أشرقت الشمس، وبزغ القمر باستمرار.. كما تدفقت الأنهار، وطن النحل. بيد أن هذا كله لم يكن في الأيام الخالية شيئًا بالنسبة لسد هارتا.. لم يكن أكثر من حجاب وهمي عابر يمر أمام عينيه، فينظر إليه مرتابًا، ويحكم بتجاهله واستبعاده من الأفكار لأنه ليس حقيقيًّا، ولأن الحقيقة تستقر في الجانب الآخر من المرئي. أما الآن، فإن عينيه تتلبثان عند هذا الجانب، لقد شاهد المرئي وأدركه، وبحث عن مكانه في هذا العالم. إنه لم يبحث عن الحقيقة، وهدفه لا يوجد على أي جانب آخر. لقد كان العالم جميلًا منظورًا إليه على هذا النحو دون بحث.. كان بسيطًا غاية البساطة، بل طفوليًّا. وكان القمر والنجوم فاتنة، والغدير والشاطئ والغابة والصخرة، والعنزة، والجعران الذهبي، والزهرة، والفراشة.. كل هذا بديع. وكم كان جميلًا وممتعًا أن يمضي في العالم على هذا النحو كالطفل، مستيقظًا، لا يعنيه إلا المباشر دون أي ارتياب.

وهناك في مكان آخر كانت الشمس تحترق في عنفوان، وفي مكان ثان كان البرد يسري في ظلال الغابة، وفي مكان ثالث كان يوجد اليقطين والموز، وكانت الأيام والليالي قصارًا، وكل ساعة تمر سراعًا كشراع فوق لجة البحر، تحت شراع سفينة حافلة بالكنوز مترعة بالمتعة. وشاهد سد هارتا جماعة من القردة في أعماق الغابة، تتواثب عاليًا بين الأغصان، وتناهت إلى أذنيه صرخاتها الوحشية

اللهيفة. ورأى سـد هارتا حَمَلًا يسير في أعقاب شاة وزوجها. وفي بحيرة من السمار، شاهد أسماك البوري تطارد صيدها لوجبة المساء.. وثمة أسراب من الأسماك الصغيرة تَرِفُّ وتتألق، وتبتعد في لهفة عن السمكة الكبيرة. وانعكست القوة والرغبة في دوامات الماء التي تحركها الصائدة المهتاجة. كان هذا كله موجودًا دائمًا وأبدًا، ولكنه لم يشاهده قط، لم يكن حاضرًا على الإطلاق. أما الآن فهو حاضر، وهو ينتمي إلى هذا كله. ومن خلال عينيه رأى الأنوار والظلال، ومن خلال عقله أدرك القمر والنجوم.

وتذكر سـد هارتا وهو سادر في طريقه تجربته كلها في حديقة جيتاڤانا، والتعاليم التي استمع إليها هناك من بوذا المقدس، وافتراقه عن جوفيندا، ومحادثته مع الجليل. وتذكر كل كلمة قالها للجليل، وأدهشه أنه قال أشياء لم يكن يعرفها حينذاك حق المعرفة. إن ما قاله لبوذا من أن حكمته وسره أمور لا سبيل إلى تعليمها، أو التعبير عنها، أو نقلها إلى الآخرين، وهي الأشياء التي عاناها في ساعة تنوير، هي نفسها الأشياء التي جعلها موضع تجربته، والتي بدأ الآن في تجربتها. لا بد من أن يكتسب الخبرة بنفسه. كان يعلم منذ أمد طويل أن ذاته هي «أتمان» وأنها من نفس الطبيعة الأبدية لبراهما. ولكنه لم يجد ذاته في الحقيقة أبدًا.. لأنه أراد أن يتصيدها في شبكة الأفكار. ليس الجسم هو «الذات» بكل تأكيد، وليست هي لعبة الحواس، أو الفكر أو الذهن، وليست هي الحكمة المكتسبة، أو الفن الذي

تستخلص به النتائج أو الذي ننسج به من الأفكار الموجودة فعلًا أفكارًا جديدة.. كلّا، إن عالم الفكر هذا ما زال على هذا الجانب ولا يؤدي إلى هدف، عندما يحطم المرء حواس الذات العرضية ليغذيها بالأفكار والحصافة، إن كلًّا من الفكر والحواس شيء بديع، ووراءهما يحتجب المعنى الأخير، ويجدر بنا حين نستمع إليهما معًا، أن نتعامل معهما، لا أن نزدريهما، أو نغالي من شأنهما، ولكن أن ننصت باهتمام إلى الصوتين معًا.

إن سـد هارتا لن يسعى إلا وراء ما يمليه عليه الصوت الداخلي، ولن يمكث إلا حيثما ينصحه الصوت. لماذا جلس جوتاما ذات مرة تحت شجرة التين في أعظم ساعاته عندما تلقى التنوير؟ لقد سمع صوتًا، صوتًا في أعماق قلبه يأمره أن يلتمس الراحة تحت هذه الشجرة، ولم يكن قد لجأ إلى هلاك الجسد أو تقديم القرابين، أو أداء طقوس التطهير والصلوات. كان يأكل ويشرب، وينام ويحلم، ولكنه استمع إلى الصوت. على المرء ألا يطيع أي أمر خارجي، وإنما عليه أن يطيع الصوت وحده. وأن يكون مستعدًا، هذا هو المطلوب،وهذا هو الضروري ولا شيء غيره.

وأثناء الليل عندما نام في كوخ من القش يملكه نوتي، رأى سـد هارتا حلمًا. حلم أن جوفيندا يقف أمامه مرتديًا عباءة الناسك الصفراء. وكان جوفيندا يبدو حزينًا وسأله: «لماذا تركتني؟» وهنا

عانق جوفيندا وطوقه بذراعيه. وعندما جلبه إلى صدره وهم بتقبيله، لم يعد جوفيندا، بل تحول إلى امرأة، ومن ثوب هذه المرأة برز صدر ناهد، فرقد سـد هارتا عليه ورضع منه.. وكان مذاق اللبن من هذا الصدر عذبًا قويًّا.. امتزج في مذاقه الرجل والمرأة، الشمس والغابة، الحيوان والزهر، وكل الثمار وكل الملذات. كان لبنًا مُسْكِرًا. وعندما استيقظ سـد هارتا، كان النهر الشاحب يتألق بجوار باب الكوخ، وفي الغابة ترددت صيحة بومة عميقة واضحة. ولما طلع النهار، طلب سـد هارتا من مضيفه الملّاح أن يقله عبر النهر.. فعبر به الملّاح النهر فوق طوفه المصنوع من الخيزران «البامبو». وكانت صفحة الماء العريضة تتلألأ أرجوانية في ضوء الصباح.

قال لرفيقه: «إنه نهر جميل».

فقال الملاح: «أجل.. إنه نهر غاية في الجمال.. وأنا أحبه أكثر من أي شيء آخر. وكثيرًا ما استمعت إليه، وحدّقت فيه، وكنت أتعلم منه دائمًا شيئًا ما. يستطيع المرء أن يتعلم الكثير من نهر».

قال سـد هارتا وهو يهبط على الضفة الأخرى: «شكرًا لك أيها الرجل الطيب. وأخشى ألا تكون معي أية هدية أعطيها لك أو أي أجر. إنني بلا مأوى، ابن برهميّ وسامانيّ..».

قال الملاح: «أستطيع أن أرى ذلك، ولم أتوقع منك هدية أو أجر.. وسوف تعطيني في وقت آخر..».

فسأله سـد هارتا مداعبًا: «أتظن ذلك؟».

– بكل تأكيد.. وهذا ما تعلمته من النهر أيضًا.. كل شيء يعود.. وأنت أيها الساماني ستعود.. والآن وداعًا.. ولتكن صداقتك هي أجري.. ولتفكر فيَّ عندما تضحي للآلهة..».

وابتسما وهما يفترقان. كان سـد هارتا سعيدًا بروح الصداقة التي يتحلى بها الملّاح. وخطر له وهو يبتسم أنه يشبه جوفيندا.. إن كل من ألقاه في طريقي يشبه جوفيندا.. الكل معترف بالجميل. وإن كانوا هم أنفسهم جديرين بالشكر. الكل خائفون يريدون أن يكونوا أصدقاء، أن يطيعوا ويفكروا قليلًا.. الناس أطفال..

وفي وقت الظهيرة مر بقرية. كان الأطفال يرقصون في زقاق أمام أكواخ من الطين، وكانوا يلعبون بأحجار من اليقطين وبلح البحر (نوع من المحار)، ويتصايحون ويتضاربون، ولكنهم تفرقوا هاربين خوفًا عندما شاهدوا الساماني الغريب.. وعند طرف القرية انعطف الطريق محاذاة غدير، وعند حافة الغدير ركعت امرأة شابة تغسل الثياب. وعندما حياها سـد هارتا، رفعت رأسها ونظرت إليه بابتسامة، حتى استطاع أن يرى بياض عينيها وهو يلمع، فطلب منها البركة كما هي عادة المسافرين.. وسألها عن مدى المسافة التي يقطعها من الطريق حتى يبلغ المدينة الكبيرة، وهنا نهضت المرأة وأقبلت نحوه وشفتاها الرطبتان تتألقان على نحو جذاب في

وجهها الغض. وتبادلت وإياه ملاحظات خفيفة، وسألته إن كان قد تناول طعامه، وهل ينام السامانا وحدهم حقًّا في الغابة أثناء الليل، وبأنه لا يُسمح لهم أن يصحبوا أية امرأة معهم. ثم وضعت قدمها اليسرى على قدمه اليمنى وأتت بحركة، هي الحركة التي تأتي بها امرأة حين تدعو رجلًا إلى ذلك النوع من متعة الحب الذي تسميه الكتب المقدسة «طلوع الشجرة». وأحس سـد هارتا بدمائه تشتعل، وعندما أدرك حلمه مرة أخرى في هذه اللحظة انحنى قليلًا صوب المرأة، وقَبَّل صدرها. وعندما رفع رأسه رأى وجهها مبتسمًا، مفعمًا بالشهوة، وعينيها نصف المغمضتين تصرخان بالشوق.

كان سـد هارتا يشعر بالشوق أيضًا وبالرغبة الجنسية. ولكن لأنه لم يلامس امرأة قط، فقد تردد برهة، وإن تأهبت يداه لاحتضانها.. في هذه اللحظة سمع صوته الداخلي، وقال له الصوت «كلَّا». وهنا اختفى السحر كله الذي كان على وجه المرأة الشابة الباسم، فلم يعد يرى شيئًا غير النظرة الحارة المنبعثة من امرأة شهوانية. فربت على وجنتيها في لطف، واختفى سريعًا عن المرأة التي خيب أملها في غابة البامبو.

وقبل حلول مساء ذلك اليوم، وصل إلى مدينة كبيرة، وكان مسرورًا لأن به رغبة تدفعه لأن يكون مع الناس. لقد عاش طويلًا في الغابات. وكان كوخ الملَّاح المصنوع من القش والذي رقد فيه

الليلة الماضية، هو أول سقف يظله منذ أمد بعيد.

وفي خارج المدينة عند بستان بديع لا تحوطه أسوار، التقى المتجول بصف قصير من الخدم، رجالًا ونساء يحملون السلال. وفي الوسط فوق مقعد مزخرف يستخدم كمحفة ويحمله أربعة أشخاص، تربعت امرأة، هي السيدة، وأحاطت بها وسائد حمراء، وحمتها من الشمس ظلة ملونة. فوقف سـد هارتا جامدًا عند مدخل البستان، وأخذ يراقب الموكب والحشم من الرجال والنسوة حاملات السلال.

نظر إلى المحفة وإلى السيدة المتربعة عليها، فرأى تحت شعرها الأسود الغزير المعقوص فوق رأسها، وجهًا مشرقًا غاية في العذوبة، وغاية في الذكاء، وفمًا أحمر مشرقًا كأنه تينة قطفت لتوها، وحاجبين مرسومين ببراعة على هيئة قوسين مرتفعين، وعينين داكنتين، ذكيتين لماحتين، وعنقًا دقيقًا صافيًا فوق ثوب أخضر موشي بالذهب. وكانت يداها حازمتين ناعمتين طويلتين نحيلتين، وحول معصميها التف سواران ذهبيان عريضان.

رأى سـد هارتا كم هي فاتنة، فابتهج قلبه، وانحنى انحناءة بالغة عندما مرت المحفة على مقربة منه، فلما اعتدلت قامته، تفرس في الوجه المشرق البديع، وفي العينين الذكيتين ذاتي القوسين، واستنشق أريج عطر لم يستطع التعرف عليه.

وأومأت المرأة الجميلة لحظة وابتسمت، ثم اختفت في جوف البستان يتبعها خدمها، وقال سـد هارتا في نفسه: وهكذا أدخل هذه المدينة تحت نجم سعيد. وأحس بحافز إلى دخول البستان حالًا، ولكنه أمعن الفكر، إذ تمثلت له نظرات الاحتقار والارتياب والنفور التي رماه بها الخدم من الرجال والنساء عند مدخل البستان.

إنني ما زلت سامانيًّا.. مازلت ناسكًا ومتسولًا. لا يمكن أن أظل كذلك.

ولن أتمكن من دخول البستان على مثل هذه الحال. وضحك.

واستفسر من أوائل الأشخاص الذين صادفهم عن البستان، وعن اسم المرأة فعلم أنه بستان «كمالة» الغانية الشهيرة، وأنها تملك بجانب البستان بيتًا في المدينة.

ثم دخل المدينة.. لم يكن لديه غير هدف واحد.. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، جاس خلال المدينة ماسحًا لها في متاهة الشوارع، متوقفًا عند بعض الأماكن، ثم استراح على الدرجات الحجرية عند ضفة النهر. وقبيل المساء عقد صداقة مع صبي حلاق أبصر به يعمل في ظل قوس، ووجده مرة أخرى أثناء الصلاة في معبد فيشنو حيث قص عليه حكايات عن ڤيشنو ولا كشمي. وعندما جن الليل، نام وسط الزوارق على شاطئ النهر، وفي الصباح الباكر اتجه إلى الحلاق قبل أن يتوافد أوائل الزبائن على الحانوت، فأزال

له صبي الحلاق لحيته، وكذلك مشَّط شعره ودهنه بالزيت المعطر، ثم ذهب ليستحم في النهر.

وعندما كانت «كمالة» الفاتنة تقترب من بستانها في ساعة متأخرة من العصر، متربعة في محفتها، كان سـد هارتا ماثلًا عند المدخل، فانحنى وتلقى تحية الغانية، وأشار إلى الخادم الأخير في الموكب، وطلب منه أن يعلن إلى سيدته أن برهميًّا شابًّا يريد أن يتحدث إليها. وعاد الخادم بعد هنيهة، وطلب من سـد هارتا أن يتبعه، وقاده صامتًا إلى مقصورة حيث كانت «كمالة» مضطجعة فوق أريكة، ثم تركه..

وسألته كمالة: «ألم تكن واقفًا في الخارج أمس وألقيت إليّ بالتحية؟».

- بلى بكل تأكيد.. رأيتك أمس، وألقيت إليك بالتحية.

- ولكن ألم تكن لك لحية بالأمس، وشعر طويل، وغبار يعلو شعرك؟

- لقد لاحظت جيدًا، ورأيت كل شيء، رأيت سـد هارتا ابن البرهمي الذي هجر بيته لكي يصبح سامانيًّا. وظل سامانيًّا ثلاثة أعوام. ولقد تركت الآن، على كل حال، هذا المسلك، وأتيت إلى هذه المدينة. وكان أول من صادفته قبل أن أصل المدينة هو أنت. لقد جئت إلى هنا لأخبرك- أي كمالة- أنك أول امرأة يتحدث إليها سـد هارتا دون أن يغض من طَرْفه، ولن أغض من طرفي أبدًا بعد

ذلك عندما ألتقي بحسناء.

فابتسمت كمالة، وتلاعبت بمروحتها المصنوعة من ريش الطاووس، ثم سألته: «أهذا كل ما جاء سـد هارتا ليخبرني به؟».

- جئت لأخبرك بهذا وأشكرك على أنك بهذا الحسن. وإذا لم يكن في ذلك ما يسوءك، أود أن أطلب منك- أي كمالة- أن تكوني صديقتي ومعلمتي، فأنا لا أعرف شيئًا عن الفن الذي أنت أستاذته..

وهنا أطلقت كمالة ضحكة عالية.

- ليس من خبرتي أن يأتي إليَّ سامانيًّا من الغابات ويريد أن يتعلم مني. لم يأت إليَّ أبدًا سامانيٌّ بشعر طويل ومئزر قديم ممزق. كثير من الشبان حضروا إليَّ، ومنهم أبناء براهمة، ولكنهم أتوا إليَّ في ثياب فاخرة، وأحذية فاخرة، العطر في شعورهم، والأموال في أكياسهم، هكذا كان الشبان يأتون إليَّ أيها السامانيّ.

فقال سـد هارتا: «ها أنذا قد شرعت أتعلم منك. وكنت بالأمس قد تعلمت شيئًا. وفعلًا تخلصت من لحيتي، ومشطت شعري، ودهنته بالزيت، ولم يعد ينقصني الكثير أيتها السيدة الممتازة: ثياب فاخرة، وحذاء فاخر، ومال في محفظتي. لقد أخذ سـد هارتا على عاتقه تحقيق أشياء كثيرة أصعب كثيرًا من هذه التفاهات.. فبلغ ما يريد. فلماذا لا أبلغ ما عزمت على القيام به أمس، أن أكون صديقك، وأن أتعلم منك متاع الحب. ستجدينني تلميذًا نجيبًا يا كمالة. ولقد

تعلمت أمورًا أصعب كثيرًا مما ينبغي أن تعلميني إياه. إذن فسد هارتا لا يليق بك كما هو الآن. بالزيت في شعره ولكن بلا ثياب أو حذاء، وبغير نقود».

فضحكت كمالة وقالت: «كلّا.. إنه لا يليق بعد. ينبغي أن تكون له ثياب.. ثياب أنيقة، وحذاء.. حذاء فاخر، وكثير من النقود في محفظته، وهدايا لكمالة. هل عرفت الآن أيها الساماني القادم من الغابات؟ هل فهمت؟».

وهتف سد هارتا: «فهمت جيدًا جدًّا. وكيف لا أفهم عندما يخرج الكلام من مثل هذا الثغر؟ إن ثغرك يشبه تينة قطعت لتوها يا كمالة. وشفتاي أيضًا حمراوان ناضرتان، وسيلائمان شفتيك تمام الملائمة، وسترين. ولكن أخبريني يا كمالة الجميلة، ألا تشعرين بشيء من الخوف من هذا الساماني القادم من الغابة ليتعلم الحب؟».

– ولماذا أخاف من سامانيّ.. سامانيّ غبي أتى من الغابة لم يعاشر إلا بنات آوي، ولا يعرف شيئًا عن النساء؟

إن الساماني قوي، ولا يخشى شيئًا، إنه يستطيع أن يغتصبك أيتها السيدة الجميلة، وأن يسرقك، يستطيع إيذاءك.

– كلّا، أيها الساماني، لست خائفة. هل خشي ساماني أو برهمي قط أن يأتي أحد ليضربه، أو يسلبه معرفته أو تقواه، أو قدرته في التعمق على التفكير؟ كلّا، لأنها أمور يمتلكها في نفسه، ويستطيع

أن يعطي منها ما يشاء إذا شاء، هذا هو الحال تمامًا مع كمالة، ومع متع الحب. إن شفتي كمالة شهيتان حمراوان، ولكن حاول تقبيلهما ضد إرادة كمالة، فلن تنتزع منهما قطرة واحدة من العذوبة. مع أنهما تعرفان جيدًا كيف تمنحان العذوبة. أنت تلميذ نجيب يا سـد هارتا، إذن فتعلم هذا أيضًا. يستطيع المرء أن يستجدي، وأن يشتري، وأن يعرض عليه الحب في الطرقات، وأن يجده، ولكنه لا يمكن أن يغتصب. لقد أسأت الفهم، أجل ومما يدعو للأسف أن شابًّا مهذبًا مثلك يسيء الفهم».

وانحنى سـد هارتا وابتسم قائلًا: «أنت على صواب يا كمالة، إن ذلك يدعو للأسف.. للأسف الشديد. كلّا، ينبغي ألا تضيع أية قطرات من العذوبة من شفتيك أو من شفتيّ. وإذن سيأتي سـد هارتا مرة أخرى عندما يكون لديه ما ينقصه: الثياب والحذاء والنقود. ولكن أخبريني يا كمالة الفاتنة، ألا تستطيعين إسداء نصيحة؟ ولم لا؟ من ذا الذي لا يسدي نصيحة عن طيب خاطر لسامانيّ مسكين جاهل أتى من بين بنات آوي في الغابة؟

– أين أذهب– يا عزيزتي كمالة– للحصول على هذه الأشياء الثلاثة بأسرع ما يمكن؟

– يا صديقي.. أناس كثيرون يريدون أن يعرفوا هذا. وينبغي عليك أن تفعل ما تعلمته، وتحصل على النقود والثياب والأحذية..

إن الرجل الفقير لا يستطيع الحصول على المال بطريقة أخرى.

- أستطيع أن أفكر، وأنتظر، وأصوم.

- لا شيء سوى ذلك؟

- لا شيء. أوه أجل. أستطيع أن أنظم الشعر. هل تمنحينني قبلة مقابل قصيدة؟

- سأفعل ذلك إن أعجبتني قصيدتك، ماذا سميتها؟

وبعد أن فكر سـد هارتا برهة، أنشد هذه الأبيات:

«دلفت كمالة الفاتنة إلى بستانها، وعلى مدخل البستان وقف الساماني الأسمر..

وعندما وقعت عيناه على زهرة اللوتس،

انحنى انحناءة عميقة،

واستجابت له كمالة بابتسامة،

فقال الساماني الشاب في نفسه:

من الأفضل أن يقدم المرء،

قرابين لكمالة الفاتنة

بدلًا من أن يقدمها للآلهة».

فصفقت كمالة بيديها بشدة حتى صلصلت الأساور الذهبية في معصميها.

– شِعْرَك رائع أيها الساماني الأسمر، ولن أخسر شيئًا بحق، إن وهبتك قبلة جزاء عليه.

وقربته منها بعينيها، فوضع وجهه لصق وجهها، ووضع شفتيه على شفتيها اللتين كانتا أشبه بتينة قطفت لتوها. وقبلته كمالة قبلة عميقة، وفي انفعاله الشديد، أدرك سـد هارتا أنه تعلم منها الكثير، وكم كانت ذكية وكيف سيطرت عليه، وأبعدته عنها، ثم فتنته. وكيف بعد هذه القبلة الطويلة تنتظره سلسلة طويلة أخرى من القبلات، كلها مختلفة. فوقف ساكنًا يتنفس في عمق. كان في هذه اللحظة كطفل استولت عليه الدهشة من اكتمال العلم والمعرفة التي تكشَّفت أستارها أمام عينيه.

وقالت كمالة: «شِعْرك جيد جدًّا، ولو كنت غنية، لمنحتك مكافأة عليه. ولكن، سيكون من العسير عليك أن تكسب ما تريد من مال بالشعر. فسوف تحتاج إلى مال وفير إن أردت أن تكون صديقًا لكمالة».

فتلعثم سـد هارتا قائلًا: «ما أروع طريقتك في التقبيل يا كمالة!».

– أجل، بالطبع، وهذا هو سبب عدم احتياجي للثياب، والأحذية، والأساور. وكل تلك الأشياء الجميلة. ولكن، ماذا أنت صانع؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئًا آخر غير التفكير والصيام وقرض الشعر؟

قال سـد هارتا: «أعرف أيضًا «أناشيد القربان»، ولكنني لن

أنشدها بعد الآن. كما أعرف أيضًا بعض التعاويذ، ولكنني لن أتفوه بها بعد الآن. وقد قرأت الكتب المقدسة..».

فقاطعته كمالة: «انتظر.. أنت تستطيع القراءة والكتابة؟».

- أجل بكل تأكيد، كثير من الناس يستطيعون ذلك!

- ليس معظم الناس، فأنا لا أستطيع، من حسن الحظ أنك تعرف القراءة والكتابة. حسن جدًّا، وربما احتجت للتعاويذ أيضًا.

وفي هذه اللحظة دخل خادم، وهمس بشيء في أذن سيدته.

قالت كمالة: «جاءني زائر.. أسرع بالاختفاء يا سد هارتا. يجب ألا يراك أحد هنا، سأراك غدًا مرة أخرى».

ومهما يكن من أمر، فقد أمرت الخادم أن يعطي البرهمي المقدس عباءة بيضاء. وبدون أن يعرف تمامًا ما يحدث، قاده الخادم إلى الخارج عن طريق دائري يؤدي إلى حديقة المنزل، وقدم إليه العباءة، وتركه في الأجمة، وأصدر إليه تعليمات صريحة بمغادرة البستان دون أن يراه أحد بأسرع ما يمكن..

وفعل ما أمر به راضيًا.. ولما كان معتادًا على الغابة، فقد سلك طريقه صامتًا خارج البستان. واجتاز السياج وعاد إلى المدينة راضيًا، وهو يحمل عباءته الملفوفة تحت ذراعه. ووقف عند باب حانة يلتقي عندها المسافرون، فاستجدى طعامًا صامتًا وتقبل قطعة من فطيرة الأرز صامتًا، وقال في نفسه: ربما لا أحتاج غدًا إلى استجداء

الطعام. وفجأة تملكه شعور بالكبرياء. إنه لم يعد من السامانا ولا يليق به أن يستجدي بعد الآن. فأعطى فطيرة الأرز لكلب وظل بلا طعام.

إن الحياة المعاشة هنا بسيطة. هذا ما قاله في نفسه.. ولا مصاعب فيها، وعندما كنت من السامانا، كان كل شيء عسيرًا، مضجرًا، باعثًا على اليأس في نهاية الأمر. أما الآن فكل شيء سهل.. سهل كالتعليم الذي تقوم به كمالة في التقبيل. أنا في حاجة إلى الثياب والنقود. هذا كل ما في الأمر..

وهذه أهداف لا تؤرق المرء في منامه.. وكان قد استفسر عن منزل كمالة في المدينة، وذهب إليها في اليوم التالي:

بادرته قائلة: «الأمور تسير سيرًا حسنًا. كاما سوامي يتوقع أن تزوره، إنه أغنى تاجر في المدينة، فإن أعجبته، ألحقك بخدمته. كن ذكيًّا أيها السامانى الأسمر. لقد دبرت أن يذكر له اسمك عن طريق أشخاص آخرين. كن ودودًا معه، فهو ذو نفوذ كبير. ولكن لا تكن متواضعًا كل التواضع. أنا لا أريدك أن تكون خادمًا له، وإنما ندّ له، وإلا لن أكون راضية عنك. وكاما سوامي بدأ يطعن في السن، ويستمرئ الكسل، فإن أعجبته فسيضع فيك ثقة عظيمة.

فشكرها سـد هارتا وضحك. وعندما علمت أنه لم يتناول شيئًا من الطعام ذلك اليوم واليوم الذي سبقه، أمرت بإحضار خبزًا

وفاكهة له، وأشرفت على إطعامه، قالت له عند رحيله: «كنت سعيد الحظ.. فالأبواب تفتح لك واحدًا تلو الآخر. كيف حدث هذا؟ أفيك سحر؟».

فقال سـد هارتا: «أخبرتك أمس أنني أعرف كيف أفكر، وأنتظر، وأصوم، ولكنك لم تعتبري هذه الأمور مجدية، ولكنك سترين أنها مجدية جدًّا يا كمالة. سترين أن الساماني الغبي القادم من الغابة يعرف كثيرًا عن الأشياء النافعة. كنت أول أمس مجرد شحاذ أغبر، وأمس قَبَّلت كمالة، وسأصبح تاجرًا في القريب العاجل، وأملك المال، وكل تلك الأشياء التي تقدرينها..».

فأَمَّنت على كلامه قائلة: «تمامًا، ولكن كيف كان من الممكن أن تتصرف بدوني؟ وأين ستكون إن لم تساعدك كمالة؟».

قال سـد هارتا: «عزيزتي كمالة، عندما أتيت إليك في البستان، كان هذا هو الخطوة الأولى.. كانت نيتي معقودة على تعلم الحب من أجمل امرأة. وفي اللحظة التي اتخذتُ فيها ذلك القرار، كنت أعلم أيضًا أنني سأقوم بتنفيذه، وكنت أعلم أنك ستعينني عليه، عرفت ذلك من أول نظرة منك عند مدخل البستان».

– و إن لم أُرِد؟

– ولكنك أردتِ. اسمعي يا كمالة، إنك عندما تلقين حجرًا في الماء، فإنه يشق أسرع طريق له إلى قاع المياه. وهذا هو حال

سـد هارتا عندما يكون له هدف وغاية. سـد هارتا لا يفعل شيئًا، إنه ينتظر ويفكر ويصوم، ولكنه يشق طريقه في أمور العالم كما يشق الصخر طريقه في الماء دون أن يفعل شيئًا، ودون أن يثير نفسه، إنه منجذب، وهو تارك نفسه للسقوط. إنه منجذب بهدفه، وهو لا يدع أي شيء يدخل عقله ويكون معارضًا لهدفه. هذا ما تعلمه سـد هارتا من السامانا. وهذا ما يسميه الحمقى سحرًا، وما يعتقدون أنه بفعل الجان. كل إنسان يستطيع أن يصنع السحر. وكل إنسان يستطيع أن يبلغ هدفه إذا استطاع أن يفكر وينتظر ويصوم.

وأنصتت إليه كمالة، فقد أحبت صوته، وأحبت النظرة في عينيه.

قالت بصوت ناعم: «ربما كان الأمر على ما تقول يا صديقي، وربما كان أيضًا لأن سـد هارتا رجل وسيم، ولأن نظرته تنال استحسان النساء، ولأنه محظوظ».

وقبّلها سـد هارتا مودِّعًا: «ربما كان الأمر على هذا النحو يا معلمتي. ويا ليت نظرتي تنال إعجابك دائمًا، وأن يأتي إليّ الحظ السعيد منك دائمًا!».

* * *

الفصل السادس

مع النـــاس

ذهب «سـد هارتا» لرؤية «كاما سوامي» التاجر، فأرشدوه إلى منزل بادي الثراء، وقاده الخدم عبر سجاجيد نفيسة إلى حجرة انتظر فيها رب المنزل.

ودخل «كاما سوامي» الحجرة.. رجل مرن الجسم، يفيض حيوية، رمادي الشعر، له عينان ذكيتان ماكرتان، وفم شهواني، وحيّا السيد والزائر كل منهما الآخر في مودة.

بدأ التاجر قائلًا: «قيل لي إنك برهمي، ورجل علم، ولكنك تبحث عن عمل مع تاجر.. فهل أنت في حاجة- أيها البرهمي- ولهذا تبحث عن عمل؟».

فأجاب سـد هارتا: «كلّا، لست محتاجًا، ولم أكن محتاجًا قط؟ لقد جئت من السامانا الذين عشتُ معهم زمنًا طويلًا».

– إذا كنت قد جئت من السامانا، فكيف لا تكون محتاجًا؟ أليس السامانا قومًا لا يملكون شيئًا على الإطلاق؟

قال سـد هارتا: «أنا لا أملك شيئًا، إن كان هذا هو ما تعنيه. ليس لدي أملاك بكل تأكيد، ولكن بإرادتي الحرة.. ولهذا لا أعد محتاجًا».

– ولكن كيف ستعيش إذا كنت لا تملك شيئًا؟

– لم أفكر في هذا قط يا سيدي، وقد عشت بلا ممتلكات ما يقرب من ثلاثة أعوام، ولم أفكر أبدًا بِمَ سأعيش.

– إذن فقد عشت على ما يمتلكه الآخرون.

– في الظاهر. والتاجر يعيش أيضًا على ما يمتلكه الآخرون.

– أحسنت القول، ولكنه لا يأخذ من الآخرين دون مقابل. إنه يعطي بضائعه نظير ما يأخذ.

– هذا ما تبدو عليه الأشياء.. الكل يأخذ، والكل يعطي، والحياة تسير على هذا النحو.

– آه، ولكن إذا كنت لا تمتلك شيئًا تعطيه؟

– كل إنسان يُعطي ما لديه: الجندي يعطي القوة، والتاجر السلع،

والمعلم التعليم، والزارع الأرز، والصياد السمك.

- تمامًا.. وماذا تستطيع أن تعطي؟ ماذا تعلمت بحيث يمكن أن تعطيه؟

- أستطيع أن أفكر وأنتظر وأصوم.

- أهذا كل شيء؟

- أعتقد أن هذا هو كل شيء.

- وما نفع هذا.. الصيام- مثلًا- أي نفع فيه؟

- إنه ذو قيمة عظيمة يا سيدي، فإن لم يجد المرء شيئًا يأكله، فإن أذكى ما يستطيع فعله هو أن يصوم. فإذا لم يكن سـد هارتا قد تعلم مثلًا أن يصوم، لكان عليه أن يبحث عن عمل اليوم سواء معك أو مع غيرك. ذلك أن الجوع سوف يدفعه إلى ذلك، ولكن سـد هارتا يستطيع الآن أن ينتظر في هدوء، إنه ليس نافد الصبر عجولًا، وليس محتاجًا، ويستطيع أن يصد عنه غائلة الجوع زمنًا طويلًا، وأن يضحك منها.. ومن ثم كان الصوم نافعًا يا سيدي.

- أنت على حق يا ساماني.. انتظر لحظة.

وخرج «كاما سوامي» وعاد حاملًا لفافة من الورق، وناولها لضيفه ثم سأله: «أتستطيع أن تقرأ هذا؟

فنظر سـد هارتا إلى المخطوطة وكان مكتوبًا فيها اتفاقية بيع.

وشرع يقرأ محتوياتها.

قال كاما سوامي: «رائع! وهل تكتب لي شيئًا على هذه الورقة؟

وأعطاه ورقة وريشة، فكتب سـد هارتا شيئًا، وأعاد الورقة.

وقرأ كاماسوامي: «الكتابة أمر حسن، والتفكير أحسن منها، والذكاء حسن والصبر أحسن منه».

فاثنى عليه التاجر قائلًا: «أنت تكتب كتابة جيدة جدًّا، وما زالت أمامنا أمور كثيرة للمناقشة، ولكني أدعوك اليوم لتكون ضيفًا عليَّ، وأن تقيم في منزلي».

وشكره سـد هارتا، وقبل ضيافته. إنه يعيش الآن في منزل التاجر. وأُحْضرت إليه الثياب والأحذية. وكان الخادم يعد له الحمام يوميًّا. وكانت الوجبات الفخمة تقدم له مرتين في اليوم الواحد. بيد أن سـد هارتا لم يكن يتناول غير وجبة واحدة يوميًّا، ولم يكن يأكل اللحم، أو يشرب النبيذ. وتحدث إليه «كاما سوامي» عن أعماله، وأطلعه على بضائعه، ومخازنه، وحساباته. وتعلم سـد هارتا أشياء عديدة. كان ينصت كثيرًا، ويتحدث قليلًا. وكان يتذكر كلمات كمالة دائمًا، فلم يذل نفسه للتاجر قط، بل أجبره على أن يعامله معاملة الند، بل أكثر من الند في كثير من الأحيان، وكان «كاما سوامي» يصرف أعماله في اهتمام وحماسة، غير أن سـد هارتا كان ينظر إلى الأمر كله على أنه لعب ولهو يحاول أن يحفظ قواعده جيدًا، ولكن دون

أن يحرك في قلبه شَعْرةً.

ولم ينقض زمن طويل على وجوده في منزل «كاما سوامي» حتى كان يشارك السيد أعماله. ولم ينقطع يومًا عن زيارة كمالة الفاتنة في الساعة التي تدعوه إليها في ثياب أنيقة وحذاء فاخر. وسرعان ما قدَّم إليها الهدايا أيضًا. وتعلم أشياء كثيرة من شفتيها الحكيمتين الورديتين. وكان لا يزال صبيًّا فيما يتعلق بالحب، وإن كان ميالًا إلى الغوص في أعماقه دون تبصر أو شبع، وتعلم منها أن المرء لا يمكن أن يستمتع باللذة دون أن يعطيها، وأن كل نأمة، وكل ضمة، وكل لمسة، وكل نظرة، وكل جزء في الجسم، له أسراره التي يمكن أن تمنح اللذة لمن يستطيع أن يفهم.

وعلمته أنه لا ينبغي على العشاق أن يفترقا أحدهما عن الآخر بعد إشباع حبهما دون إعجاب أحدهما بالآخر، دون سيطرة وخضوع في آن واحد، وذلك حتى لا ينشأ شعور بالشبع أو الحرمان، أو ذلك الشعور البشع بإساءة الاستعمال له أو عليه. وقضى ساعات مدهشة مع هذه الغانية الأريبة الحسناء، فأصبح تلميذها وعاشقها وصديقها، وهنا، مع كمالة، لا مع أعمال كاما سوامي- اتخذت حياته الراهنة قيمتها ومعناها.

وكان التاجر يحيل إليه كتابة الخطابات والطلبات المهمة واعتاد الرجوع إليه في جميع المسائل المهمة. وسرعان ما فطن إلى أن سد

هارتا لا يفهم إلا قليلًا عن الأرز والصوف وعن الشحن والتجارة، ولكنه يتميز بلباقة نادرة.. ويتفوق عليه في نفوس الغرباء. قال ذات مرة لصديق له: «هذا البرهمي ليس تاجرًا حقيقيًّا، ولن يكون أبدًا، فهو لا يستغرق كلية في التجارة، ولكنه حائز على سر أولئك الناس الذين يأتي إليهم النجاح من تلقاء نفسه، سواء كان ذلك لأنه وُلِد تحت نجْم حسن الطالع، أو كان سحرًا، أو لأنه تعلمه من الساماانا.. إذ يبدو عليه دائمًا أنه يلعب بالتجارة، فهي لا تترك فيه أي تأثير، ولا تسيطر عليه أبدًا، وهو لا يخشى الفشل قط، ولا تعنيه الخسارة على الإطلاق».

ونصح الصديق التاجر قائلًا: «امنحه ثلث أرباح الصفقات التي يعقدها لك، ولكن دعه أيضًا يقاسمك نفس النسبة في الخسائر إذا وقع منها شيء. وبهذه الطريقة يمكن أن يصير أشد حماسة».

واتبع «كاما سوامي» نصيحة صديقه. غير أن سد هارتا لم يهتم كثيرًا.. فإذا صادف ربحًا، تقبله هادئًا، وإن أصابته خسارة ضحك وقال: «فليكن، سارت الصفقة على غير ما يرام».

ويبدو في الواقع أنه غير مكترث بالتجارة. فذات مرة سافر إلى قرية ليبتاع محصولًا كبيرًا من الأرز. وعندما وصل إلى هناك كان الأرز قد بيع فعلًا إلى تاجر آخر. ومع ذلك فقد مكث سد هارتا عدة أيام في تلك القرية يسري عن الفلاحين ويعطي نقودًا للأطفال،

وشارك في حفل زفاف، وعاد من الرحلة راضيًا تمام الرضى، ولامه «كاما سوامي» لأنه لم يعد في الحال، ولأنه بدد الوقت والمال. فأجابه سـد هارتا: «لا تلمني أيها الصديق العزيز.. إن شيئًا لم يتحقق قط باللوم والتأنيب، وإذا كانت قد حلت بنا خسارة، فأنا سأتحملها. إنني راض جدًّا عن هذه الرحلة، فقد تعرفت على كثير من الناس، وصادقت رجلًا برهميًّا، وجلس الأطفال على ركبتي، وأراني الفلاحون حقولهم.. ولم يعاملني أحد بوصفي تاجرًا».

واقتنع كاما سوامي محجمًا «هذا كله بديع.. ولكنك تاجر في واقع الأمر، أم تراك سافرت لمتعتك الخاصة؟».

فضحك سـد هارتا: «بكل تأكيد لقد سافرت من أجل متعتي الخاصة، ولم لا؟ لقد تعرفت على أناس، وأحياء جدد، واستمتعت بالصداقة والثقة، ولو كنت «كاما سوامي» لرحلت في الحال، يلازمني شعور بالضيق بعد أن رأيت أنني عاجز عن الشراء، وحينئذ سيكون الوقت والمال قد ضاعا حقًّا. ولكنني أنفقت عددًا من الأيام الجميلة.. وتعلمت الكثير، واستمتعت كثيرًا، ولم أسبب أذى لنفسي أو للآخرين، سواء بالمضايقة أو التسرع. فإذا ذهبت إلى هناك مرة أخرى، ربما لشراء محصول آخر، أو لأي غرض آخر، فسوف يستقبلني أشخاص أصدقاء، وسأكون مسرورًا لأنني لم أُظْهر في المرة السابقة أي تسرع، أو استياء. على أية حال فليكن ما كان، ولا

تضر نفسك باللوم، وإذا جاء اليوم الذي تقول فيه لنفسك، إن هذا السـد هارتا يؤذيني، فقلها كلمة واحدة، وسيمضي سـد هارتا لحال سبيله.. فحتى ذلك الحين دعنا نكن أصدقاء مخلصين».

وذهبت محاولات التاجر لإقناع سـد هارتا بأنه يأكل من خبزه- خبز كاما سوامي- ذهبت أيضًا أدراج الرياح، ذلك أن سـد هارتا كان يأكل عيش نفسه. وفضلًا عن ذلك، فإنهم كانوا جميعًا يأكلون من عيش الآخرين، من عيش الجميع. ولم يعبأ سـد هارتا قط بمتاعب كاما سوامي. وقد كانت لكاما سوامي متاعب كثيرة. فإذا دلت النُذُر على فشل إحدى الصفقات، وإذا ضاعت طلبية من البضائع، وإذا ظهر أن مدينًا لا يستطيع سداد دينه، لم يستطع كاما سوامي أبدًا إقناع زميله بأن الكلمات الغاضبة المهينة تفيد شيئًا، أو أن تكوين الغضون على الجبين والأرق بالليل تنفع صاحبها أي نفع. وعندما ذكره كاما سوامي ذات مرة بأنه تعلم منه كل شيء أجابه: «لا تؤلف هذه النكات. لقد تعلمت منك كم تتكلف سلة من السمك، وكم تكون الفائدة التي يطالب بها المرء إذا أقرض مالًا. هذه هي معرفتك. ولكنني لم أتعلم منك كيف أفكر يا عزيزي كاما سوامي، ومن الأفضل أن تتعلم ذلك مني».

ولم يكن قلبه في التجارة حقًّا. كل ما فيها من فائدة أنها تجلب إليه المال من أجل كمالة. وكانت تجلب إليه أكثر مما يحتاج إليه

في واقع الأمر. وفضلًا عن ذلك، كان تعاطف سـد هارتا وحبه للاستطلاع ينصبان على الناس وحدهم.. الناس الذين كان كدحهم، ومتاعبهم ومسراتهم وحماقاتهم، مجهولة بالنسبة إليه، بل أكثر بعدًا عنه من القمر. ومع أنه كان يجد من اليسير عليه أن يتحدث إلى كل إنسان وأن يتعلم من كل إنسان، إلا أنه كان في وعي بهذه الحقيقة: وهي أن ثمة شيئًا يفصل بينه وبينهم.. وهذا راجع إلى أنه كان من السامانا. كان يرى الناس يعيشون بطريقة صبيانية، أو حيوانية، وهي طريقة يحبها ويحتقرها في آن معًا. كان يراهم يكدحون ويعانون ويشيبون من أشياء لا تستحق كل هذا الثمن، من المال والمسرات الصغيرة والأمجاد التافهة، كان يراهم يتلاومون ويسيئون بعضهم إلى بعض، ورآهم ينوحون من آلام يضحك منها السامانا، ويعانون ضروبًا من الحرمان لا يشعر بها السامانا.

وكان يقبل كل ما يحمله الناس إليه: التاجر الذي يحضر إليه الكتان ليبيعه يلقى كل ترحيب، المدين الذي يسأل عن قرض، يلقى كل ترحيب؛ الشحاذ الذي يمكث ساعة ليروي له قصة فقره، وإن لم يكن قد كابد من الفقر ما يكابده السامانا يلقى كل ترحيب. ولم يكن يعامل التاجر الغني الغريب معاملة تختلف عن معاملته للخادم الذي يلحق له أو للباعة المتجولين الذين يبتاع منهم الموز. ويتظاهر بالغفلة وهم يسرقون منه العملات الصغيرة. فإذا حدث أن جاء إليه كاما سوامي، وشكا إليه متاعبه، أو وجه إليه اللوم والتأنيب على

صفقة من الصفقات، أصغى إليه في اهتمام وانتباه، وتعجب منه محاولًا أن يفهمه. وربما تنازل له قليلًا إذا بدا له ذلك ضروريًّا، ثم انصرف عنه إلى الشخص التالي الذي يريده. وكان كثير من الناس يأتون إليه للمتاجرة معه، أو لخداعه، أو للاستماع إليه، أو لاستدرار عطفه، والإنصات إلى نصائحه. فكان يسدي نصائحه، ويتعاطف مع الناس ويقدم الهدايا ويسمح للآخرين بخداعه قليلًا. فكان يشغل أفكاره بهذه اللعبة كلها وبالانفعال الذي يلعبها به الناس جميعًا، بنفس القدر الذي كان يشغل به أفكاره من قبل بالإله وبراهما.

ومن حين إلى آخر، كان يسمع في أعماق نفسه صوتًا عذبًا رقيقًا يذكره تذكيرًا هادئًا ويشكو شكوى هادئة حتى لا يكاد يسمعه، ثم لم يلبث أن رأى فجأة أنه يحيا حياة غريبة، وأنه يأتي أمورًا كثيرة لا تعدو أن تكون لعبًا، وأنه يمرح أشد المرح، ويشعر بالسرور أحيانًا. بيد أن السعادة الحقيقية كانت تنساب بعيدًا عنه دون أن تمسه. وكاللاعب الذي يلعب بكرته، كان يلعب هو بالتجارة ومع الناس الذين يحيطون به، يراقبهم ويستمد منهم التسلية، ولكنه لم يكن معهم بقلبه أو بطبيعته الحقة. كانت ذاته الحقيقية تتجول في مكان آخر، بعيدًا جدًّا، تتجول دون انقطاع ودون أن يراها أحد.. ودون أن تكون لها أدنى صلة بحياته.

وكان الخوف يستولي عليه أحيانًا من هذه الأفكار، فيود لو يستطيع أن يشارك الناس أيضًا في أمورهم اليومية الصبيانية بشيء

من الحرارة، وأن يشاطرهم ما يخوضون فيه بصدق، وأن يتمتع ويعيش حياتهم بدلًا من أن يظل في مكانه كالمتفرج.

وكان يزور كمالة الجميلة بانتظام. وتعلم فن الحب الذي يكون فيه الأخذ والعطاء شيئًا واحدًا أكثر من أي فن آخر. وكان يتحدث إليها، ويتعلم منها وينصحها وينتصح منها، وكانت تفهمه أكثر مما فهمه «جوفيندا»، إذ كانت أقرب شبهًا إليه.

وذات مرة قال لها: «أنت تشبهينني، وأنت تختلفين عن سواك من الناس. أنت كمالة لا شيء آخر، وفي أعماق نفسك سَكَنٌ ومحراب تستطيعين الانسحاب إليهما في أي وقت لتكوني ذاتك، مثلما أستطيع أنا. قلائل من الناس الذين يملكون هذه القدرة، ومع ذلك فكل إنسان يستطيع أن تكون له».

فقالت كمالة: «ليس كل الناس أذكياء».

قال سـد هارتا: «إنها مقدرة لا صلة لها بالذكاء يا كمالة.. كاما سوامي لا يقل عني ذكاء، ولكنه لا يملك مثل هذا المحراب، وآخرون يملكونه وإن كانوا مجرد أطفال في إدراكهم، إن معظم الناس يا كمالة أشبه بورقة شجر ساقطة تلف وتدور في الهواء، ثم ترف وتهوي إلى الأرض، ولكن هناك فئة قليلة أشبه بالنجوم التي تسلك مسارًا محددًا، فلا رياح تصل إليهم، وفي أنفسهم يستقر المرشد والطريق. وبين الحكماء جميعًا الذين عرفتهم، وقد

عرفت منهم الكثير، كان هناك واحد بلغ الكمال في هذا المجال، وليس في إمكاني أن أنساه أبدًا. إنه «جوتاما» المستنير الذي يبشر بهذه الدعوة. وهناك آلاف من الشبان يستمعون إلى تعاليمه كل يوم، ويتبعون تعليماته كل ساعة، ولكنهم جميعًا أوراق متهاوية لا يملكون الحكمة والمرشد داخل أنفسهم».

ونظرت إليه كمالة، وابتسمت: «ها أنت ذا تحدث عنه مرة أخرى، وها أنت تعود لأفكار السامانا».

فلم يجب سـد هارتا. ولعبا لعبة الحب، واحدة من اللعب الثلاثين أو.. الأربعين المختلفة التي تعرفها كمالة. كان جسدها لينًا كالنمر أو كقوس الصياد، ومن تعلم منها فن الحب، عرف كثيرًا من المتع وكثيرًا من الأسرار. وظلت تلعب مع سـد هارتا وقتًا طويلًا، تصده ثم تجتاحه وتستولي عليه، وهي مسرورة ببراعتها حتى غلبته، فرقد إلى جانبها منهوك القوى.

وانحنت عليه الغانية وحدقت طويلًا في وجهه، وفي عينيه اللتين غشيهما التعب. قالت وهي ممعنة في التفكير: «أنت أفضل عاشق عرفته، فأنت أقوى من الآخرين، وأكثر ليونة، وأسرع استجابة، لقد أخذت عني الفن جيدًا. سـد هارتا، عندما أصبح أكبر سنًّا، سيكون لي ولد منك ذات يوم، ومع ذلك فقد ظللت سامانيًّا يا عزيزي، إنك لا تحبني حقًّا، أنت لا تحب أحدًا، أليس كذلك؟».

قال سـد هارتا متعبًا: «ربما.. أنا مثلك فأنت لا تستطيعين الحب كذلك، وإلا فكيف يمكن أن تمارسي الحب بوصفه فنًّا؟ لعل الناس الذين هم على شاكلتنا لا يستطيعون الحب. بسطاء الناس يستطيعون ذلك.. وهذا هو سرهم».

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

سانسارا

عاش سـد هارتا حياة الدنيا زمنًا طويلًا دون أن ينتمي إليها. كانت حواسه التي أماتها في أعوام السامانا العامرة بالزهد والتقشف قد استيقظت من جديد، فذاق حياة البذخ والشهوة والقوة، ولكنه ظل ردحًا طويلًا سامانيًّا في صميم قلبه. وأدركت كمالة بذكائها الفطري هذه الحقيقة، فقد كانت حياته موجهةً دائمًا بفن التفكير والانتصار والصوم، وكان الناس المتكالبون على الدنيا.. غمار الناس، ما برحوا غرباء عنه مثلما كان غريبًا عنهم.

ومضت الأعوام.. ولما كانت مُغَلَّفة بظروف مريحة، لم يكد سـد هارتا يفطن إلى مرورها. لقد أصبح الآن من سراة القوم، يملك

بيتًا خاصًّا له، وله خدم عاكفون على خدمته، وحديقة في ضواحي المدينة تطل على النهر، وكان الناس يحبونه ويأتون إليه كلما أعوزهم المال أو النصح. ومع ذلك لم يكن له- باستثناء كمالة- أي أصدقاء مقربين.

أما تلك اليقظة المجيدة المتسامية التي عاناها في شبابه، تلك الأيام التي أعقبت موعظة جوتاما، وبعد افتراقه عن جوفيندا، وأما ذلك التوقع المتحفز وتلك الكبرياء التي دفعته إلى الوقوف وحيدًا بلا أساتذة أو مذاهب، وأما ذلك التأهب المتلهف للإصغاء إلى الصوت الإلهي في أعماق فؤاده- أما هذا كله فقد استحال رويدًا رويدًا إلى ذكرى- حتى تلاشى. وذلك النبع المقدس الذي كان قريبًا منه ذات يوم، والذي أنشد بصوت عال في داخله ذات مرة، إنما يهمس الآن خافتًا من مكان بعيد. ولكنه ما برح يحتفظ على كل حال بكثير مما تعلمه من السامانا ومما تعلمه من جوتاما، ومن أبيه، ومن البراهمة: حياة معتدلة، ومتعة في التفكير، وساعات طويلة من التأمل، ومعرفة خفية للذات الأبدية التي ليست جسدًا وليست شعورًا.. احتفظ بالكثير من هذه الأشياء، وهناك أشياء أخرى ساخت وغطّاها التراب.

وكما تظل عجلة صانع الآلات تدور زمنًا طويلًا بعد أن بدأت في الحركة، ثم تبطئ في سيرها وتتوقف، كذلك ظلت عجلة

الناسك، عجلة التفكير، عجلة التميز تدور زمنًا طويلًا في نفس سـد هارتا. إنها فتئت تدور ولكن في بطء وتردد، حتى أوشكت أن تتوقف. وكما تتسرب الرطوبة متباطئة إلى جذع الشجرة المحتضرة حتى تملأها وتفسدها تمامًا، كذلك تسللت الدنيا والارتخاء إلى روح سـد هارتا.. وفي بطء امتلأت بهما روحه فأثقلتاها وأرهقتاها وأسلمتاها للنوم. غير أن حواسه ظلت مستيقظة من ناحية أخرى، بل أشد استيقاظًا، واكتسبت نصيبًا كبيرًا من المعرفة وحظًّا وفيرًا من التجربة.

تعلم سـد هارتا كيف يعقد الصفقات التجارية، وكيف يستحوذ على مشاعر الناس، وكيف يسرِّي عن نفسه مع النساء، تعلم ارتداء الثياب الفاخرة وإصدار الأوامر إلى الخدم، والاستحمام في مياه معطرة. وتعلم أن يأكل الأطعمة اللذيذة التي أُعِدَّت بعناية، وكذلك الأسماك واللحوم والطيور والتوابل والمشهيات، وأن يشرب النبيذ الذي جعله كسولًا كثير النسيان. وتعلم أن يلعب النرد والشطرنج، وأن يتفرج على الراقصات و يُحْمَل على المحفات ويرقد في فراش وثير. ولكنه كان يشعر دائمًا أنه يختلف عن الآخرين، وأنه أعلى منهم. وكان يراقبهم دائمًا في شيء من الاحتقار، بشيء من الازدراء الساخر قليلًا، بذلك الترفع الذي يشعر به الساماني دائمًا إزاء الأشخاص الدنيويين. فإذا انزعج كاما سوامي، أو أحس أنه أهين

أو اضطربت أعماله التجارية، كان سـد هارتا ينظر إليه ساخرًا. بيد أن سخريته وشعوره بالتفوق أخذا يقلان شيئًا فشيئًا دون أن يلحظ ذلك مع مرور المواسم والأعوام. ذلك أن سـد هارتا نفسه اكتسب تدريجيًّا- مع نمو ثرواته- بعضًا من سمات غمار الناس، وشيئًا من صبيانيتهم وقلقهم. ومع ذلك فقد كان يحسدهم، وكلما صار مثلهم ازداد حسده لهم. كان يحسدهم على الشيء الوحيد الذي ينقصه وهم يملكونه: شعور الأهمية الذي عاشوا به حيواتهم وعمق مسراتهم وأحزانهم والسعادة القلقة، وإن تكن عذبة، التي تتسم بها قدرتهم المستمرة على الحب.

كان هؤلاء الناس في حالة حب دائمة لأنفسهم ولأطفالهم وللمجد أو المال مع المشاريع أو الأمل. بيد أن هذه الألوان من الحب لم يتعلمها منهم، هذه المتع والحماقات الطفولية، ولم يتعلم منهم إلا الأشياء السخيفة التي يحتقرها فحسب.

وكان يحدث في أغلب الأحيان بعد ليلة مرحة أن يرقد في فراشه إلى ساعة متأخرة من النهار وهو يشعر بالخمول والنَصَب. ولا يلبث أن يشعر بالضيق ونفاد الصبر، عندما يضجره كاما سوامي بمتاعبه. وكان يضحك بصوت مرتفع عندما يخسر في لعبة النرد. وكان وجهه لا يزال أذكى وألمع من وجوه الآخرين، ولكنه نادرًا ما يضحك. واكتسى وجهه تدريجيًّا بالتعبيرات التي توجد غالبًا على

وجوه الأثرياء، تعبيرات البطر والسقم، والقرف، والخمول، وانعدام الحب. وهكذا زحف إلى نفسه ذلك السقام الروحي الذي يعانيه الأغنياء.

وكالحجاب أو كغمامة رقيقة، استقر ضرب من السأم على روح سـد هارتا.. بطيئًا تزداد كثافته قليلًا كل يوم، وتشتد ظلمته قليلًا كل شهر، ويتثاقل قليلًا عامًا بعد عام. وكما يبلى الثوب الجديد مع الزمن ويحول لونه الزاهي، وتلطخه البقع والأوساخ، وتنسل حواشيه، وتنحل فيه هنا وهناك المواضع، فكذلك شاخت حياة سـد هارتا الجديدة التي بدأها بعد افتراقه عن «جوفيندا». وعلى هذا النحو نفسه حال لونها وبهت رونقها مع مرور الأعوام، وتراكمت عليها الغضون والبقع، وأخذ انقشاع الوهم والغثيان المنتظرين المختبئين في الأعماق يطلان هنا وهناك من حين لآخر. ولم يلحظ سـد هارتا شيئًا من ذلك، ولكنه لاحظ فحسب أن الصوت الداخلي المشرق الواضح الذي استيقظ في نفسه ذات مرة والذي كان يهديه دائمًا في أحرج ساعاته، قد لزم الصمت.

لقد اقتنصته الدنيا: الشهوات والطمع والكسل، وأخيرًا تلك الرذيلة التي احتقرها وازدراها دائمًا على أنها أحمق الرذائل وهي حب الاقتناء. لقد أوقعت به أخيرًا في حبالها الممتلكات والمقتنيات وألوان الثراء. لم تعد لعبًا ولهوًا بالنسبة إليه، بل أصبحت أغلالًا

وإصرًا. وسلك سـد هارتا دربًا غريبًا ملتويًا في هذا الانحدار الأخير الوضيع عبر لعبة الميسر. فمنذ أن انقطع سـد هارتا عن أن يكون بقلبه من السامانا، بدأ يلعب النرد مراهنًا بالمال والجواهر في اندفاع متزايد، وهي لعبة كان يشارك فيها من قبل مبتسمًا لا مباليًا بوصفها عادة شائعة بين أوساط الناس. وكان لاعبًا جبارًا لا يجرؤ على مجاراته غير القليلين نظرًا لارتفاع مراهناته وتهوره.

وكان يقامر نتيجة لحاجة تخامر قلبه، إذ يستمد متعة عميقة في تبديد تلك الأموال اللعينة وبعثرتها. فما من طريقة أخرى يستطيع أن يعلن بها في وضوح واستهزاء عن احتقاره للثراء.. ذلك الإله الزائف الذي يعبده رجال الأعمال. وهكذا كان يقامر بمبالغ ضخمة غير مبقٍ على شيء مبغضًا نفسه، ساخرًا منها، يربح الآلاف ويلقي بالآلاف ويخسر الأموال والجواهر، ويخسر منزلًا ريفيًّا كان يملكه. ويربح مرة أخرى ويخسر ثانية.

كان يحب هذا القلق.. هذا القلق الرهيب المستبد الذي كان يعانيه أثناء لعبة النرد، أثناء لحظة التعلق في المراهنات الكبيرة. أحب هذا الشعور وسعى إلى تجديده باستمرار، وإلى مضاعفته وتنشيطه. ففي هذا الشعور وحده كان يجد نوعًا من السعادة، ضربًا من الإثارة، لونًا من الحيوية المرتفعة وسط هذا الوجود المتخم الفاتر الماسخ. وكان يكرس نفسه، بعد كل خسارة ضخمة، للحصول على ثروات

جديدة، ويجري متلهفًا وراء الصفقات، متعجلًا المدينين بالدفع لأنه يريد أن يقامر مرة أخرى، ويريد أن يبعثر مرة أخرى، ويريد أن يظهر احتقاره للثروة مرة أخرى. وأمسى سـد هارتا نافد الصبر عندما تصيبه الخسائر، وفقد صبره مع المدينين الذين يتلكأون في الدفع، ولم يعد عطوفًا على المتسولين، ولم تعد به رغبة لتقديم الهدايا والقروض إلى المساكين. وأصبح وهو الذي يراهن بعشرة آلاف على رمية نرد واحدة وهو يضحك، أصبح أكثر تشددًا ودناءة في العمل، وكان يحلم أحيانًا بالنقود أثناء الليل، وأينما استيقظ من هذا السحر البغيض، وحيثما رأى وجهه منعكسًا في المرآة المعلقة على جدار حجرة نومه، وقد شاخ وازداد قبحًا، وكلما استولى عليه الخزي والغثيان، هرب مرة أخرى.. هرب إلى لعبة جديدة من ألعاب المصادفة.. هرب مرتبكًا إلى الشهرة، إلى الخمر، ومنها عائدًا مرة أخرى إلى اكتساب الثروة وتكديسها. واستنفد نفسه في هذه الحلقة الجهنمية الحمقاء، وأصبح عجوزًا عليلًا.

وهنا ترآى له حلم أعاد إلى ذاكرته كل شيء. كان بصحبة كمالة في المساء، في حديقة ملذاتها الحبيبة. وكانا يجلسان تحت شجرة يتبادلان الحديث. كانت كمالة تتحدث حديثًا جديًّا. وكان الحزن والتعب يختفيان وراء كلماتها. وطلبت منه أن يتحدث إليها عن جوتاما؛ لأنها لم تكن قد سمعت منه ما فيه الكفاية: أي صفاء كان

في عينيه، أي سلام وجمال في شفتيه، وأية رشاقة في ابتسامته، وأي سلام في تصرفاته كلها. وطفق يحدثها طويلًا عن بوذا المستنير حتى تنهدت كمالة وقالت: «ذات يوم- وربما كان عاجلًا- سأصبح تابعة لهذا البوذا، وسوف أمنحه حديقة ملذاتي، لأجد المأوى الأمين في تعاليمه».

ولكنها كانت تغويه بعد ذلك بمفاتنها، وتضمه أثناء لعبة الحب في حماسة بالغة، وفي عنف وافتراس شديدين، وكأنما تريد أن تستقطر منه مرة أخرى آخر قطرة عذبة من هذه المتعة العابرة.

ولم يتبين سـد هارتا قط من قبل بمثل هذا الوضوح الغريب كيف ترتبط العاطفة بالموت ارتباطًا وثيقًا. وحينئذ كان يرقد إلى جوارها، ووجه كمالة قريب من وجهه، ولأول مرة قرأ بوضوح تحت عينيها وبالقرب من طرفي ثغرها علامةً حزينةً، تجاعيد وغضون رقيقة، علامة تذكِّر بالخريف وبالشيخوخة.

وقد لاحظ سـد هارتا نفسه، وكان في الأربعينيات من عمره، شعيرات بيضاء متناثرة هنا وهناك في شعره الأسود. وكان الإرهاق مسطورًا على وجه كمالة الجميل، الإرهاق للاستمرار في طريق لا ينتهي إلى غاية بهيجة.. الإرهاق وبدايات الشيخوخة، وخوف محتجب لم يذكر بعد، وربما لم يصل بعد إلى مستوى الوعي، خوف من خريف الحياة، خوف من الشيخوخة، خوف من الموت.

وتنهد وهو يتركها بقلب مثقل بالتعاسة والخوف المستسر.

وأنفق سـد هارتا الليل في منزله بين الخمر والراقصات، متظاهرًا بأنه متفوق على رفاقه، وهو لم يعد ذلك حقًّا. وكان قد احتسى كثيرًا من الخمر، فآوى إلى فراشه بعد منتصف الليل، متعبًا، وإن يكن مضطربًا، قانطًا تكاد الدموع تفر عن عينيه. وحاول أن ينام، ولكن بلا جدوى، كان قلبه مفعمًا بالتعاسة، حتى شعر أنه لا يستطيع الاحتمال. وكاد يختنق بشعور من الغثيان استولى عليه كأنه نوع من الخمر مرير المذاق، أو كلحن موسيقي غاية في العذوبة، ولكنه سطحي، أو كابتسامة الراقصات العذبة، أو العطر الناعم الذي يفوح من شعورهن ونهودهن. ولكنه كان فوق هذا وذاك مشمئزًا من نفسه، ومن شعره المعطر، ومن رائحة الخمر التي تفوح من فمه، ومن ظهر جلده الأملس المترهل. وكشخص أتخم بالطعام والشراب، ثم تقيأ متألمًا، فأحس بالراحة، ودَّ سـد هارتا القَلِق لو استطاع أن يعتق نفسه بزفرة واحدة رهيبة من تلك الملذات أو العادات، من هذه الحياة المبتذلة كلها. ولم يعالج الخمر إلا عند مطلع النهار وعند التباشير الأولى للنشاط خارج منزله في المدينة، وحينئذ استولت عليه لحظات أشبه بالنسيان، ولاحت له إمكانية الموت. وفي خلال هذا الوقت، عَرضَت له رؤيا.

كانت كمالة تحتفظ بطائر صغير مغرد نادر الوجود، في قفص

صغير من الذهب. وعن هذا الطائر دارت رؤياه. فهذا الطائر الذي كان يغرد عادة في الصباح كف عن التغريد، وأخلد إلى الصمت فلما أدهشه ذلك، أقبل على القفص ونظر إلى داخله. كان الطائر ميتًا، وقد رقد متصلبًا على الأرض، وأخرجه سـد هارتا، وأمسك به لحظة في راحته ثم ألقى به بعيدًا في الطريق. وفي هذه اللحظة نفسها استولى عليه الرعب، وأخذ قلبه يخفق خفقانًا أليمًا متواصلًا، وكأنه ألقى مع هذا الطائر الميت كل ما هو خيِّر وقيِّم في نفسه.

وما كاد يفيق من حلمه، حتى طغى عليه شعور بحزن عميق. فبدا له أنه أضاع حياته على نحو تافه لا قيمة له، ولم يستبق شيئًا ذا أهمية حيوية، شيئًا ثمينًا جديرًا بالاحتفاظ، ووقف وحيدًا، كرجل تحطمت سفينته على الشاطئ.

وذهب سـد هارتا حزينًا إلى روض من رياض المتعة التي يمتلكها، فأغلق أبوابه، وجلس تحت شجرة من أشجار المانجو، وهو يشعر بالفزع والموت في قلبه، واستجمع شتات أفكاره شيئًا فشيئًا، وأخذ يستعرض على صفحة ذهنه حياته كلها ابتداء من أيامه المبكرة التي يستطيع أن يتذكرها. متى كان سعيدًا حقًّا؟ متى أحس بالفرحة حقًّا؟ أجل أحس بذلك عدة مرات، ذاقه في أيام الصبا عندما فاز بثناء البراهمة عليه، وحينما تفوق على أقرانه، وعندما برز في إنشاد الأشعار المقدسة، وفي مناقشة العلماء، وعندما شارك في

تقديم القرابين. ثم أحس في قلبه بصوت يقول له: «أمامك طريق عليك أن تسلكه.. الآلهة في انتظارك». وتذكر أيضًا عندما كان شابًّا يدفعه هدفه أن يحلق باستمرار إلى الدخول ثم إلى الخروج من جمهرة الباحثين من أمثاله، عندما جاهد جهادًا شاقًّا ليفهم تعاليم البراهمة، عندما كانت كل معرفة جديدة يكتسبها يتولد عنها ظمأ جديد. ثم وسط هذا التعطش ووسط جهوده يفكر مرة أخرى: «امض قدمًا إلى الأمام، قدمًا إلى الأمام، هذا هو سبيلك». سمع هذا الصوت عندما هجر بيته، وآثر حياة السامانا، وسمعه مرة أخرى عندما انفصل عن السامانا وذهب إلى «الكامل»- بوذا- وسمعه أيضًا عندما تركه من أجل المجهول. كم انقضى من الوقت منذ أن استمع إلى هذا الصوت، أو منذ أن حلَّق صاعدًا إلى آمال أخرى؟ كم كان سبيله مسطَّحًا مقفرًا موحشًا! كم أنفق من الأعوام الطوال دون أن يكون له هدف سامق، دون أي ظمأ، دون أية نشوة، قانعًا بالملذات الصغيرة، دون أن يرضى حقًّا! لقد حاول- دون أن يفطن لذلك- واشتاق طيلة تلك الأعوام أن يكون مثل هؤلاء الناس جميعًا، مثل أولئك الأطفال، ومع ذلك كانت حياته أتعس وأفقر كثيرًا من حياتهم؛ ذلك لأن أهدافهم لم تكن أهدافه، وأحزانهم لم تكن أحزانه، هذا العالم كله الذي يعيش فيه أناس كاما سوامي لم يكن غير مباراة بالنسبة إليه، رقصة، ملهاة يتفرج عليها المرء. كمالة وحدها هي التي كانت عزيزة عليه، ذات قيمة بالنسبة إليه، ولكن أما زالت كذلك؟ أما زال

في حاجة إليها، وهل ما زالت في حاجة إليه؟ ألا يلعبان لعبة لا نهاية لها؟ أمن الضروري أن يعيش لهذه اللعبة؟

كلّا، هذه اللعبة تُدْعى «سانسارا» لعبة للأطفال، لعبة يستمتع بها المرء إذا لعبها مرة.. مرتين.. عشر مرات، ولكن، أتستحق أن يلعبها المرء باستمرار؟

وهنا أدرك سـد هارتا أن اللعبة قد انتهت، وأنه لم يعد في استطاعته أن يلعبها بعد الآن. سرت رعدة في بدنه، وأحس كأن شيئًا قد مات.

وجلس طيلة ذلك اليوم تحت شجرة المانجو يفكر في أبيه، ويفكر في جوفيندا، ويفكر في جوتاما. هل ترك هذا كله ليصبح كاما سوامي؟

جلس هناك حتى هبط الليل. وعندما رفع عينيه وأبصر النجوم، قال في نفسه: ها أنذا أجلس تحت شجرتي، وفي روض متعتي. وابتسم قليلًا. أكان من الضروري، أكان من الصواب، ألم يكن من الحمق أن يملك شجرة مانجو وروضة؟

لقد انتهى ذلك كله من نفسه. مات هذا أيضًا في نفسه، ونهض مودِّعًا شجرة المانجو وروض المتعة. ولما لم يكن قد تناول أي طعام ذلك اليوم، فقد أحس بجوع شديد. خطر له منزله في المدينة وحجرته وسريره، والمائدة الحافلة بأنواع الطعام. فابتسم متعبًا،

وأنغض رأسه، وقال وداعًا لهذه الأشياء جميعًا.

وفي هذه الليلة نفسها، غادر سـد هارتا الحديقة والمدينة إلى غير رجعة. وحاول كاما سوامي زمنًا طويلًا العثور عليه، معتقدًا أنه وقع في أيدي اللصوص. أما كمالة، فلم تحاول البحث عنه، ولم تصبها الدهشة عندما علمت أن سـد هارتا قد اختفى.

ألم تتوقع هذا دائمًا؟ أليس هو من السامانا، بلا بيت، مجرد مهاجر؟ لقد أحست بذلك أكثر من أي وقت مضى في لقائهما الأخير، وفي وسط عذابها لخسارته، ابتهجت لأنها ضمته تلك الضمة العنيفة إلى قلبها في تلك المناسبة الأخيرة، ولأنها شعرت بأنه امتلكها امتلاكًا تامًّا، وسيطر عليها تمام السيطرة.

وعندما تناهت إليها الأنباء الأولى عن اختفاء سـد هارتا، سارت إلى النافذة التي تحتفظ عندها بطائر مغرد نادر في قفص من ذهب.

وفتحت باب القفص وأخرجت الطائر وأطلقت سراحه.. وظلت تتابع الطائر المختفي برهة بناظريها. ومنذ ذلك اليوم، انقطعت عن استقبال الزوار، وأغلقت عليها أبواب منزلها. واكتشفت بعد فترة من الزمن أنها تحمل طفلًا نتيجة لاجتماعها الأخير بسـد هارتا.

* * *

الفصل الثامن

على ضفاف النهر

أخذ سـد هارتا يتجول في الغابة بعيدًا عن المدينة وهو لا يعلم سوى شيء واحد هو أنه لا يستطيع الرجوع، وأن الحياة التي عاشها تلك السنين الطوال قد انقضت بعد أن ذاقها واستنزفها إلى درجة الغثيان. لقد مات الطائر الغرِّيد. لقد كان موته الذي لاحت له رؤياه هو الطائر الذي يعشش في قلبه. كانت الدنيا قد أوقعته في حبائلها فلا يستطيع منها فكاكًا. وكان الغثيان والموت يحاصرانه من كل جانب، وكأنه إسفنجة تمتص الماء حتى الامتلاء. كان مُفْعمًا بالسأم والتعاسة والموت، ولم يعد في العالم شيء يجتذبه، أو يمنحه السرور والعزاء. كان يصبو مشتاقًا إلى النسيان.. وإلى السكينة وإلى الموت.

لو أن ومضة من البرق صعقته، لو أن فهدًا هجم عليه والتهمه، لو أن هناك نوعًا من الخمر أو السمّ يمنحه النسيان ويجعله ينسى، ويجعله ينام دون أن يصحو أبدًا! أكان هناك نوع من القذارة لم يلطخ به نفسه، أو ضرب من الألم والحماقة لم يرتكبه، أو أي دنس لم يلوث به روحه، ولم يكن هو وحده مسئولًا عنه؟ أما زال من الممكن أن يعيش؟ أمن الممكن أن يلتقط أنفاسه مرة بعد أخرى، وأن يخرجها، وأن يشعر بالجوع وأن يأكل مرة أخرى، وينام ويضاجع النساء؟ ألم تُسْتَنْفَد هذه الدورة وتنتهي بالنسبة إليه؟

وكان سـد هارتا قد بلغ النهر الكبير الذي يشق الغابة. نفس النهر الذي عبر به الملّاح عندما كان لا يزال شابًّا، قادمًا من قرية جوتاما. وتوقف إزاء النهر، ولبث مترددًا على شاطئه. كان التعب والجوع قد نالا منه كل منال. ولماذا يوغل في الغابة أكثر من ذلك؟ وإلى أين.. ولأي غرض.. لم تعد لديه غاية.. ولم يبق غير شوق عميق موجع إلى أن ينفض عن روحه هذا الحلم المشوش كله، وأن يبصق هذه الخمر الفاسدة، وأن يضع حدًّا لهذه الحياة المرة الأليمة.

وكانت هناك شجرة على ضفة النهر.. شجرة جوز الهند، فمال سـد هارتا عليها، وطوق جذعها بذراعيه، ونظر إلى المياه الخضراء التي تجري من تحته. نظر إلى أسفل، فملأته تمامًا رغبة في أن يدع نفسه يهوي إلى الماء ليبتلعه، وعكس الهواء البارد في الماء ذلك

الخواء الرهيب في روحه.. أجل إنه شارف النهاية، ولم يبق له إلا أن يمحو نفسه، وأن يحطم الهيكل الفاشل الذي تتألف منه حياته، وأن يقذف به بعيدًا، ولتستهزئ به الآلهة.

هذه هي الفعلة التي يتشّوف إلى ارتكابها: أن يحطم الشكل الذي يمقته. ألا ليت الأسماك تبتلعه، هذا الكلب الذي هو سد هارتا، هذا الرجل المجنون، هذا الجسد الفاسد العفن، هذه الروح البليدة التي أساء استعمالها. ألا ليت الأسماك والتماسيح تلتهمه، وليت الشياطين تمزقه إربًا إربًا..

وتفرس في النهر بوجه شائه، فأبصر وجهه منعكسًا في المياه، فبصق عليه، وسحب ذراعه من جذع الشجرة، واستدار قليلًا حتى يستطيع أن يسقط رأسه في المياه ليختفي في النهاية تحتها.. فانحنى مغمض العينين صوب الموت.

وحينئذ تناهى إليه من مكان ناءٍ من روحه.. من ماضي حياته المتعبة.. تناهى إليه صوت. كان مؤلفًا من كلمة واحدة من مقطع واحد. همس به إلى نفسه دون تفكير إنه البداية القديمة.. والنهاية لكل الصلوات البرهمية.. «أوم» المقدس، ومعناها الواحد الكامل، أو «الكمال». وفي هذه اللحظة عندما بلغ صوت «أوم» أُذُنيّ سد هارتا، استيقظت فجأة روحه الغافية، وأدرك ما في فعلته من جنون.

استبد بسد هارتا رعب عميق. إذن فهذا هو ما انتهى إليه. كان

ضائعًا تمام الضياع، مشتتًا كل التشتت، خاليًا من كل عقل عندما سعى إلى الموت. هذه الرغبة، هذه الرغبة الطفولية كانت قد رسخت في نفسه، أن يجد السلام بتحطيم جسده. إن كل عذابات الأيام الأخيرة، وكل انقشاع للوهم، وكل يأس.. هذا كله لم يؤثر فيه تأثير اللحظة التي وصلت فيها كلمة «أوم» إلى وعيه، وأدرك خسته وجريمته، «أوم» نطق بها داخل نفسه، وكان على وعي ببراهما، وبأن الحياة لا تفنى. وتذكر كل ما قد نسيه وكل ما هو إلهي.

غير أن ذلك لم يستغرق غير لحظة خاطفة، ومضة. وخر سد هارتا عند أقدام شجرة جوز الهند مغلوبًا بالتعب على أمره. ووضع رأسه على جذور الشجرة، وهو يتمتم باسم «أوم». واستغرق في نوم عميق. كان نومه عميقًا، خاليًا من الأحلام. لم ينم مثل هذا النوم منذ زمن بعيد. وعندما استيقظ بعد ساعات طويلة، خيِّل إليه أن عشرة أعوام قد انقضت، وسمع خرير المياه العذبة، فلم يدر أين هو أو ماذا أتى به إلى هذا المكان؟ ورفع بصره، فأدهشه أن يرى الأشجار والسماء فوقه. فتذكر مكانه وكيف جاء إليه، وأحس برغبة في أن يبقى حيثما كان فترة طويلة. وبدأ الماضي له الآن متشحًا بحجاب، بعيدًا كل البعد، تافهًا كل التفاهة. لم يكن يعرف إلا أن حياته السابقة قد انتهت في اللحظة الأولى التي عاد فيها إلى وعيه، بدت له حياته السابقة تجسيدًا بعيدًا كولادة مبكرة لذاته الحاضرة، وأنها تفيض بالغثيان والتعاسة، وأنه أراد

تحطيمها. ولكنه ثاب إلى نفسه عند ضفة النهر، تحت شجرة جوز الهند، وعلى شفتيه كانت كلمة «أوم» المقدسة، وأن النوم قد غلبه حينذاك. وعندما استيقظ نظر إلى العالم نظرة إنسان جديد. وهمس لنفسه بكلمة «أوم» في عذوبة، وهي الكلمة التي نام أثناء ترديدها، ولهذا خيِّل إليه أن نومه كله كان عبارة عن نطق طويل عميق لكلمة «أوم»، عن تفكير فيها، عن اندماج ونفاذ في أوم في «اللامسمى»، في الإلهي.

ما كان أروعه من رقاد! إنه لم ينم في حياته نومًا أنعشه وجدده، وأعاد إليه شبابه كهذا النوم. لعله قد مات حقيقة، وربما غرق ثم ولد من جديد على هيئة أخرى. كلّا لقد تعرف على نفسه.. وتعرف على يديه وقدميه، والمكان الذي رقد فيه، و«الذات» التي استقرت في صدره، سـد هارتا، صاحب الإرادة الذاتية والفردية.. بيد أن هذا السـد هارتا قد تغير على نحو ما، تجدَّد، لقد نام نومًا رائعًا، واستيقظ يقظة عجيبة، وبعيدة.. طُلَّعة..

وأنهض سـد هارتا نفسه، فأبصر ناسكًا يرتدي عباءة صفراء، حليق الرأس، جالسًا قبالته في وضع المفكر.. فنظر إلى الرجل الذي خلت رأسه ولحيته من الشعر. ولم يطل نظره إليه ليتعرف في هذا الناسك على جوفيندا، صديق صباه جوفيندا الذي لجأ إلى بوذا الجليل. وكان جوفيندا قد تقدم به العمر هو أيضًا، وإن تبدَّت على

وجهه سماته القديمة: اللهفة، والولاء وحب الاستطلاع والقلق. ولكن عندما شعر جوفيندا بنظرته إليه، ورفع عينه لينظر إليه، أدرك سـد هارتا أن جوفيندا لم يتعرف عليه.. ولاحت على جوفيندا أمارات السرور أن وجده مستيقظًا. وكان من الواضح أنه جلس هناك طويلًا ينتظر يقظته، وإن لم يكن يعرفه.

قال سـد هارتا: «كنتُ نائمًا. ولكن كيف أتيت إلى هنا؟».

فأجاب جوفيندا: «لقد كنتَ نائمًا، وليس من الخير أن تنام في مثل هذه الأماكن حيث تزحف الأفاعي، وتتسلل الحيوانات من الغابة. أنا واحد من أتباع جوتاما الجليل.. بوذا ساكياموني، وأنا في رحلة حج مع عدد من رجال الطائفة، وأبصرت بك ترقد نائمًا في مكان خطر... ومن ثمَّ حاولت إيقاظك، ورأيت أنك تنام نومًا عميقًا.. فتخلفت عن إخواني، وقعدت إلى جانبك، ولكن يبدو أنني أنا الذي أردت أن أراقبك قد غلبني النعاس أنا نفسي، لقد غلبني الإجهاد فساءت مراقبتي لك. ولكنك استيقظت الآن. ولهذا يجب أن أمضي لألحق بإخواني..».

- أشكرك أيها الساماني على حراسة نومي.. إن أتباع المستنير طيبون جدًّا. ولكنك تستطيع الآن أن تواصل مسيرتك.

- سأذهب. لعلك ترعى نفسك.

- أشكرك أيها الساماني.

وانحنى جوفيندا وقال: «وداعًا..».

قال سـد هارتا: « وداعًا يا جوفيندا».. فتسمر الناسك في مكانه!

- معذرة يا سيدي.. كيف عرفت اسمي؟

وهنا ضحك سـد هارتا.

- أنا أعرفك يا جوفيندا منذ كنت في بيت أبيك وفي مدرسة البراهمة، وعند تقديم القرابين وفي إقامتنا مع الساماتا. وفي تلك الساعة التي قضيناها في بستان جيتاڤينا، عندما حلفت يمين الولاء للمستنير..».

فصاح جوفيندا: «أنت سـد هارتا، الآن عرفتك، ولا أفهم لماذا لم أتعرف عليك فورًا. تحياتي يا سـد هارتا، ما أعظم سروري برؤيتك مرة أخرى!».

- أنا أيضًا مسرور برؤيتك ثانية. لقد حرستني أثناء نومي. وأنا أشكرك مرة أخرى، وإن لم أكن في حاجة إلى حارس لي. أين تمضي يا صديقي؟

- لست ذاهبًا إلى مكان محدد.. فنحن النساك راحلون دائمًا على الطريق. باستثناء الفصل المطير.. نحن ننتقل دائمًا من مكان إلى آخر، ونعيش تبعًا للقاعدة وننادي بالبشارة، ونجمع الصدقات، ثم نمضي في سبيلنا.. والحال على هذا المنوال دائمًا. ولكن إلى أين تذهب يا سـد هارتا؟.

قال سـد هارتا: «إن حالي لا يختلف عن حالك يا صديقي. لن أذهب إلى أي مكان.. إنما أنا عابر سبيل فحسب. إنني أقوم برحلة حج.».

قال جوفيندا: «تقول إنك تقوم برحلة حج، وأنا أصدقك، ولكن سامحني يا سـد هارتا، إذ لا تبدو في منظر الحاج، فأنت ترتدي ثياب رجل غني، وتنتعل حذاء على آخر طراز، وشعرك المعطر ليس شعر حاج.. ليس شعر الساماناً!».

– أنت دقيق الملاحظة يا صديقي.. وأنت ترى كل شيء بعينيك الثاقبتين.. ولكني لم أقل لك إنني من الساماناً. قلت إنني أقوم برحلة حج.. وهذا حق..».

قال جوفيندا: «تقوم برحلة حج. ولكن قلائل هم الذين يحجون في مثل هذه الثياب.. وفي مثل هذا الحذاء، وهذا الشعر.. وأنا الذي تجولت سنوات طوالًا، لم أر قط مثل هذا الحاج».

– أنا أصدقك يا جوفيندا. ولكنك ها أنت ذا تلتقي اليوم بمثل هذا الحاج مرتديًا هذه الثياب، منتعلًا مثل هذا الحذاء. تذكر يا عزيزي جوفيندا أن عالم المظاهر عالم عابر، وأن طراز ثيابنا وشعرنا عابر إلى أقصى حد. بل إن شعرنا وأجسامنا أنفسها عابرة. وقد كانت ملاحظتك في محلها، أنا أرتدي ثياب رجل غني، وأنا أرتديها لأنني كنت رجلًا غنيًّا. وأنا أصفف شعري مثل رجال الأناقة والمجتمع

الراقي.. لأنني كنت واحدًا منهم».

- وماذا أنت الآن يا سـد هارتا؟

- لست أدري. ومعرفتي بذلك لا تزيد عن معرفتك. إنني على الطريق. كنت رجلًا ثريًّا، ولكنني لم أعد الآن كذلك. أما ماذا سأكون غدًا، فهذا ما لا أعرفه.

- هل فقدت ثروتك؟

- أجل فقدتها أو هي التي فقدتني، لست متأكدًا، إن عجلة المظاهر تدور سراعًا يا جوفيندا. أين سـد هارتا البرهمي؟ وأين سـد هارتا الساماني؟ وأين سـد هارتا الرجل الغني؟ العابر سرعان ما يتغير يا جوفيندا.. أنت تعلم ذلك.

وظل جوفيندا ينظر مرتابًا إلى صديق صباه وقتًا طويلًا، ثم انحنى أمامه كما يفعل الإنسان لأصحاب الجاه، ثم مضى في سبيله.

وراقبه سـد هارتا مبتسمًا وهو يرحل. كان لا يزال يحبه، هذا الصديق المخلص الذي لا يبارحه القلق. وفي هذه اللحظة، في هذه الساعة الرائعة، وبعد هذا النوم المدهش الذي تخلله «أوم» كيف يملك نفسه عن أن تحب شخصًا ما أو شيئًا ما. هذا هو بعينه السحر الذي وقع له أثناء نومه.. و«أوم» الذي شاع في أعطافه.. لقد أحب كل شيء، وكان مفعمًا بعشق بهيج لكل ما يقع عليه بصره. وبدا له أن هذا هو السبب الذي كان من أجله عليلًا في حياته السابقة؛ لأنه

لم يكن يستطيع أن يحب شيئًا أو أحدًا..

وبابتسامة، شيَّع سـد هارتا الناسك المرتحل. وكان النوم قد ردَّ إليه شيئًا من قواه.. ولكنه كان يعاني جوعًا هائلًا، إذ لم يأكل شيئًا منذ يومين. وكان زمن تحمله للجوع قد انقضى منذ عهد بعيد. وتذكر ذاك العهد في شيء من الاضطراب، وفي شيء من الضحك أيضًا. وتذكر أنه تفاخر في ذلك العهد بثلاثة أشياء أمام كمالة.. ثلاثة فنون نبيلة لا تقهر هي: الصيام والانتظار والتفكير. كانت هذه هي ممتلكاته.. جاهه وسطوته.. عكازه الراسخ.. ولقد تعلم هذه الفنون الثلاثة ولا شيء سواها خلال أعوام شبابه المجتهدة المثابرة.. ولكنه فقدها الآن، ولم يعد يملك شيئًا منها بعد. لا الصيام، ولا الانتظار، ولا التفكير. لقد استبدل بها الآن أتعس الأشياء.. الأشياء العابرة.. ملذات الحس.. الحياة الناعمة وعالم الجاه والثراء. لقد سلك طريقًا غريبًا ويبدو الآن أنه قد أصبح حقًّا شخصًا عاديًّا.

وأمعن سـد هارتا الفكر في حالته، فوجد أنه من العسير عليه أن يفكر، ولم يجد في نفسه رغبة في هذا حقًّا. ولكنه أرغم نفسه.

والآن بعد أن أفلتت مني كل تلك الأشياء العابرة مرة أخرى، ها أنذا أقف ثانية تحت الشمس كما وقفت ذات مرة طفلًا صغيرًا لا أملك شيئًا، ولا شيئًا أعرف، ولم أتعلم شيئًا. يا للغرابة.. الآن، وبعد أن فارقني الشباب واشتعل الرأس شيبًا، ووهن العظم مني، ها أنذا

أبدأ الآن كما يبدأ الطفل. وكان لا بد أن يبتسم مرة أخرى. أجل، إن مصيره عجيب، إنه يعود القهقرى، وهو يقف مرة أخرى في هذا العالم خاوي الوفاض، عاريًا جاهلًا. ولكنه لم يأسَ على ذلك، كلّا، بل أحس برغبة شديدة في أن يضحك من نفسه، ومن هذا العالم الأحمق الغريب.

قال في نفسه: إن الأشياء تسير معك إلى الخلف.. وضحك. وما إن قال ذلك حتى ومضت نظرته على النهر، فرأى أن النهر يجري باستمرار إلى الخلف، ويغني مرحًا. فأعجبه إعجابًا شديدًا، وابتسم مبتهجًا إليه. أليس ذلك هو النهر الذي أراد يومًا أن يغرق نفسه فيه.. منذ مئات السنين، أم كان كل ذلك حلمًا..

ما أغرب ما كانت حكايته! لقد تسكع خلال مسالك عجيبة. عندما كنت صبيًّا أبحث مشغولًا بالآلهة والقرابين وعندما كنت شابًّا كنت عاكفًا على النسك، مولعًا بالتفكير والتأمل. كنت عاكفًا أبحث عن «براهما» وكنت أوقِّر الأبدي في «أتمان»، وفي شبابي كنت منجذبًا إلى التكفير، وعشت في الغابات، وقاسيت الهجير والزمهرير، وتعلمت الصوم، وتعلمت كيف أقهر جسدي. ثم اكتشفت مبهورًا تعاليم «بوذا» الجليل، وأحسست أن المعرفة ووحدة العالم.. تجري في عروقي مجرى الدم. ولكني شعرت أنني مجبر على الافتراق عن بوذا، وعن المعرفة العظيمة فرحلت، وتعلمت مسرات الحب

من كمالة، والتجارة من كاما سوامي، وجمعت الأموال وبعثرت الأموال. واكتسبت ذوقًا للمأكل الفاخر، وتعلمت كيف أنشِّط حواسي.. وكان لا بد لي من إنفاق أعوام عديدة على هذا النحو لكي أفقد ذكائي، وقدرتي على التفكير، ولكي أنسى كل شيء عن وحدة الأشياء.. أليس من الحق أنني تحولت ببطء وعبر انحرافات كثيرة من رجل إلى طفل؟ من مفكر إلى شخص عادي؟ ومع ذلك كان هذا الطريق صالحًا، ولم يمت الطائر الذي كان في صدري، ولكن يا له من طريق! كان لا بد من أن أجتاز كل هذا الغباء، كل هذه الرذائل، كل هذه الأخطاء.. كل هذا الغثيان وانقشاع الوهم والأحزان؛ لكي أصبح طفلًا من جديد.. ولكي أبدأ من جديد.. ولكن من الصواب أن يكون الأمر على هذا النحو. إن عيني وقلبي يؤيدان هذا.. كان لا بد أن أجرب اليأس، وأن أغوص إلى أعمق الأعماق الذهنية. إلى أفكار الانتحار لكي أجرب الفضل الإلهي، ولأستمع إلى «أوم» مرة أخرى، ولكي أنام بعمق مرة أخرى، ولكي أستيقظ منتعشًا مرة ثانية. كان لا بد أن أصير أحمق مرة أخرى، لكي أجد الإنسان في نفسي. كان لا بد أن أقترف الإثم، لأعيش ثانية. فأين سيقودني طريقي بعد ذلك، هذا الطريق غبي، يسير في دوائر لولبية، وربما في دوائر...

ولكن أي اتجاه سلكه فسوف أتبعه..

وشعر بسعادة غامرة تشيع في باطنه..

وسأل نفسه من أين أتت؟ وما سبب هذا الشعور بالسعادة؟ هل صدرت عن نومتي الطويلة الطيبة التي أفادتني كل هذه الفائدة؟ أم من كلمة «أوم» التي نطقت بها؟ أو لأنني هربت ولأن هروبي قد اكتمل، ولأنني أصبحت أخيرًا حرًّا مرة أخرى، ووقفت كالطفل تحت السماء؟ آه، كم كان هذا الفرار سديدًا، هذا التحرر!! كان يشيع دائمًا في المكان الذي هربت منه جو من الدهون المعطرة، والتوابل والإفراط والتراخي، كم أبغضت دنيا الترف.. والخمر والميسر.. كم أبغضت نفسي لبقائي طويلًا في هذا العالم البشع، كم كرهت نفسي وعاندتها وسممتها وعذبتها، وجعلت نفسي عجوزًا دميمًا. لن أعتبر سـد هارتا ذكيًّا مرة أخرى وأنا الذي تخيلت ذلك مزهوًّا ذات مرة. بيد أن هناك شيئًا واحدًا أحسنت صنعه، شيئًا يسرني، ويجب عليَّ أن أمتدحه. لقد وضعت الآن حدًّا لذلك البغض الذاتي.. لهذه الحياة الخاوية الحمقاء.. إنني أثني عليك يا سـد هارتا.. لأنك بعد كل سنوات الحماقة تلك الكثيرة خطرت لك فكرة طيبة، ولأنك حققت شيئًا ولأنك استمعت مرة أخرى إلى الطائر الذي في صدرك يغني، فاتبعته.

وهكذا أثنى على نفسه، وكان مسرورًا من نفسه، وأنصت متعجبًا إلى أمعائه التي أخذت تزوم من الجوع، وشعر أنه تذوق شطرًا من الحزن حتى الثمالة، ولهذا لفظت الحزن نفسه.. شطرًا من

البؤس خلال تلك الأعوام الماضية، حتى استهلكها إلى درجة اليأس والموت.. ولكن هذا كله حسن. فقد كان من الممكن أن يمكث فترة أطول مع كاما سوامي، وأن يجمع المال ويبعثره، وأن يُطْعم بدنه، ويهمل روحه. وكان من الممكن أن يقيم زمنًا أطول في ذلك الجحيم الناعم الوثير. لو لم يحدث هذا، هذه اللحظة.. التي تخلو تمامًا من كل أمل.. لحظة اليأس والتوتر التي انحنى فيها على المياه المتدفقة، متأهبًا للانتحار، هذا اليأس، وهذا الغثيان المفرط الذي عاناه لم يهزمه تمامًا. فالطائر، والنبع الصافي، والصوت الداخلي.. ما زالت أحياء. وهذا هو سبب بهجته والسر الذي أضحكه، والضوء الذي يشع من وجهه تحت شعره الرمادي.

وقال في نفسه: من المستحسن أن يجرب المرء كل شيء بنفسه. فلقد تعلمت وأنا طفل أن ملذات الدنيا ومتاعها نوع من الغرور.. عرفت ذلك فترة طويلة، ولكنني لم أجربه إلا منذ فترة قريبة. والآن لا أعرف هذه الحقيقة بعقلي فحسب.. بل بعيني وقلبي وأحشائي.. وهذا شيء طيب أن أعرف تلك الحقيقة.

وفكر مليًا في التغيير الذي اعتراه.. وأنصت إلى الطائر يغرد في سعادة. لو أن هذا الطائر المستقر في أعماقه قد مات، أيكون في ذلك هلاكه؟ كلّا، شيء آخر قد مات فيه، شيء ظل طويلًا يتمنى أن يموت. أليس هو الشيء الذي أراد أن يحطمه خلال سنوات الزهد

المتحمسة. ألم يكن هذا الشيء هو ذاته؟

ذاته الضئيلة المخيفة، المزهوة التي صارعها طيلة تلك السنين.. والتي كانت تعود فتغلبه دائمًا، والتي تعود للظهور مرة بعد أخرى، فتسلبه السعادة وتملؤه بالخوف؟ أليست هي التي ماتت نهائيًّا اليوم في الغابة على مرأى من هذا النهر البهيج؟ أليس بسبب موتها أصبح الآن كالطفل، مليئًا بالثقة والسعادة، خاليًا من كل خوف؟

وأدرك سـد هارتا الآن أيضًا لماذا جاهد «الذات» عبثًا عندما كان برهميًّا ناسكًا.. ذلك أن كثرة المعرفة أعاقته، قصائد مقدسة أكثر من اللازم.. طقوس لتقديم القرابين أكثر من اللازم.. إهلاك للجسد أكثر من اللازم.. وأفعال ونضال أكثر من اللازم. كان مليئًا بالعجرفة، وكان دائمًا أذكى الجميع، وأشدهم تلهفًا، يسبق الآخرين إلى كهنوتيته، إلى عجرفته.. إلى عقلانيته.. كانت هذه الذات تقعد متحفزة هناك.. وأخذت تنمو على حين اعتقد أنه يدمرها بالصوم والتفكير.. والآن أدرك كل هذا.. وتأكد من أن الصوت الداخلي كان على حق، وأن ما من مدرس يمكن أن يجلب إليه الخلاص، وهذا ما دفعه إلى الخوض في خضم العالم، وإلى أن يفقد نفسه في الجاه والنساء والأموال. وهذا هو ما دفعه لأن يكون تاجرًا ومقامرًا.. وسكيرًا، وصاحب أملاك، إلى أن مات فيه الناسك والساماني. وهذا هو السبب الذي جعله يقاسي تلك الأعوام البشعة، ويعاني الغثيان،

ويتعلم درس الجنون من الحياة الجوفاء الباطلة حتى النهاية، حتى يصل إلى اليأس المرير، وذلك حتى يمكن لسد هارتا منتهب الملذات، سد هارتا رجل الأملاك، أن يموت. ولقد مات واستيقظ سد هارتا جديد من نومه، وسوف يطعن هذا أيضًا في السن ويموت. سد هارتا شيء عابر، والأشكال كلها عابرة، أما اليوم فهو شاب، طفل، هذا السد هارتا الجديد، وكان في غاية من السعادة.

عبرت هذه الأفكار بذهنه، واستمع مبتسمًا إلى أمعائه، وأصغى شاكرًا، لطنين نحلة، ونظر إلى أمعائه، وإلى النهر المتدفق مغتبطًا. لم يجتذبه نهر في حياته كما اجتذبه هذا النهر، ولم يجد خريرًا للماء الجاري ومظهرًا له أجمل من هذا المظهر وذاك الخرير. وبدا له كأن النهر يضمر شيئًا خاصًا يريد أن يفضي به إليه.. شيئًا لا يعرفه.. شيئًا ما زال في انتظاره. لقد أراد سد هارتا أن يغرق نفسه في هذا النهر، واليوم أغرق فيه سد هارتا العجوز المتهالك اليائس. وأحس السد هارتا الجديد بحب عميق لهذا الماء المتدافع، واعتزم ألا يتركه مرة أخرى بهذه السرعة.

* * *

الفصل التاسع

الملّاح

سأبقى بجانب هذا النهر. إنه نفس النهر الذي عبرته في طريقي إلى المدينة، حين أخذني لعبوره ملّاح ودود. سأذهب إليه. إن سبيلي قادني ذات مرة من كوخه إلى حياة جديدة هي الآن عتيقة ميتة. فلعل طريقي الحاضر.. حياتي الجديدة، تبدأ من هناك. نظر سد هارتا في عشق إلى الماء المتدفق.. إلى الخضرة الشفافة.. إلى الخطوط البللورية التي تحدِّد تصميمها العجيب، فرأى لآلئ متألقة تصعد من الأعماق، وفقاقيع تسبح على المرآة، وزرقة السماء تنعكس عليها. ونظر إليه النهر بألف عين خضراء وبيضاء وبللورية وزرقاء. كم يعشق هذا النهر! وكم يسحره! وما أعمق عرفانه بجميله! وفي قلبه أنصت إلى الصوت الذي استيقظ حديثًا يتكلم ويقول له: أحبب هذا

النهر، وامكث إلى جواره، وتعلم منه. أجل إنه يريد أن يتعلم منه، وأن يصغي إليه. وخيل إليه أن من يفهم هذا النهر وأسراره- كائنًا من كان- سيفهم المزيد.. المزيد من الأسرار.. بل الأسرار جميعًا. ولكنه لم يشاهد اليوم إلا سرًّا واحدًا من أسرار النهر.. سرًّا استحوذ على روحه.. رأى أن الماء يتدفق ويتدفق باستمرار، ومع ذلك كان هناك دائمًا.. كان الماء هو نفسه دائمًا.. ومع ذلك فقد كان جديدًا في كل لحظة. من ذا الذي يستطيع أن يفهم هذا وأن يتصوره؟ إنه لم يكن يفهمه، وإنما كان على وعي فحسب بشبهة معتمة.. ذكرى شاحبة.. أصوات إلهية.

ونهض سـد هارتا، وخزات الجوع أصبحت لا تطاق.. وتسكع متألمًا على ضفة النهر، مصغيًا لخرير المياه، مستمعًا للجوع الذي ينخر بدنه. وعندما وصل إلى المعبر، كان الزورق رابضًا هناك.. وكان المراكبي الذي عبر بالساماني الشابّ عرض النهر ذات مرة واقفًا في الزورق..

وتعرف عليه سـد هارتا مرة أخرى.. وكان العمر قد تقدم به كثيرًا هو أيضًا.

سأله: «هل تعبر بي النهر؟».

وبانت الدهشة على وجه المراكبي عندما رأى رجلًا من علية القوم وحيدًا راجلًا، فأخذه في زورقه.. وشرع في الرحيل.

قال سـد هارتا: «لقد اخترت حياة رائعة، فما أبدع أن يعيش المرء بالقرب من هذا النهر وأن يبحر عليه كل يوم!».

فابتسم الملّاح، وتأرجح في لطف.

– شيء رائع كما تقول يا سيدي، ولكن أليست كل حياة.. كل عمل شيئًا رائعًا؟

– ربما.. ولكنني أحسدك على حياتك.

– أوه، سرعان ما يفتر إعجابك بها.. إنها لم تخلق للناس الذين يرتدون ثيابًا أنيقة.

فضحك سـد هارتا وقال: «لقد حكم عليّ اليوم من ثيابي فعلًا، وكنتُ موضع اشتباه.. هل تقبل مني هذه الثياب.. التي أراها عبئًا ثقيلًا، إذ يجب أن أخبرك بأنني لا أملك نقودًا أدفعها لك لعبورك بي صفحة النهر».

فضحك المراكبي: «السيد يمزح بلا شك».

– أنا لا أمزح يا صديقي، لقد عبرت بي النهر ذات مرة دون أن تتقاضى أجرًا، فأرجوك أن تفعلها اليوم أيضًا، وخذ ثيابي مقابل ذلك.

– وهل سيمضي السيد بلا ثياب؟!

– أوثر ألا أمضي أبعد من ذلك، وأوثر أن تمنحني شيئًا من الثياب القديمة.. وأن تستبقيني هنا كمساعد لك.. أو بالأحرى صبيّك، إذ

ينبغي أن أتعلم كيف أقود الزورق».

ونظر الملّاح إلى الغريب متفحصًا برهة طويلة، ثم قال أخيرًا:

– لقد عرفتك. أنت الذي نمت في كوخي ذات مرة، لقد مضى على ذلك زمن طويل.. ربما كان أكثر من عشرين سنة. عبرت بك النهر وافترقنا صديقين طيبين. ألم تكن من الساماناً؟ لا أستطيع أن أتذكر اسمك!

– اسمي سـد هارتا. كنت من الساماناً عندما رأيتني آخر مرة.

– مرحبًا بك يا سـد هارتا. اسمي ڤازوديڤا. وأرجو أن تكون ضيفي اليوم، وتنام أيضًا في كوخي وتخبرني من أين أتيت؟ ولماذا تشعر بكل هذا التعب من ثيابك الغالية؟

وكانا قد بلغا منتصف النهر، فأخذ ڤازوديڤا يجدف تجديفًا أقوى بسبب التيار...

وكان يجدف هادئًا بذراعين مفتولتين وهو يراقب طرف الزورق.

وجلس سـد هارتا يراقبه، وتذكر كيف أحس بميل إلى هذا الرجل ذات مرة في أيامه الأخيرة مع الساماناً. وقبل شاكرًا دعوة ڤازوديڤا. وعندما بلغا شاطئ النهر ساعده على إرساء الزورق في أمان، ثم قاده ڤازوديڤا إلى الكوخ.. وقدم إليه خبزًا وماء تناولهما سـد هارتا في متعة، وكذلك التهم حبة المانجو التي قدمها إليه ڤازوديڤا.

وفي ساعة متأخرة من النهار، عندما جنحت الشمس إلى المغيب، جلسا فوق جذع شجرة على ضفة النهر، وقص عليه سـد هارتا قصة نشأته وحياته، وكيف رآه اليوم بعد تلك الساعة من ساعات اليأس. واستمرت القصة حتى ساعة متأخرة من الليل.

وكان ڤازوديڤا ينصت في اهتمام شديد، فاستمع إلى كل شيء عن نشأته وطفولته، وعن دراساته وتطلعاته ومسراته، واحتياجاته.. وكانت إحدى الفضائل الكبرى للملّاح- وما أندرها فضيلة بين الناس- أنه يحسن الاستماع، ودون أن ينطق ڤازوديڤا بكلمة، أحس المتحدث أنه استوعب كل كلمة في هدوء وترقب دون أن يفوته شيء.. ولم يكن ينتظر أي شيء بصبر نافد.. ولا يوجه لومًا أو إطراء، وإنما ينصت فحسب. وأحس سـد هارتا بأن من أروع الأشياء أن يكون للمرء مثل هذا المستمع الذي يمكن أن يستغرق في حياته الخاصة ومجاهداته وأحزانه.

ومهما يكن من أمر، فعندما اقترب سـد هارتا من نهاية قصته، وعندما أخبره عن الشجرة القائمة على ضفة النهر، وعن يأسه العميق، وعن «أوم» المقدس، وكيف أحس بعد نومه بذلك العشق للنهر، أنصت الملّاح بانتباه مضاعف.. مستغرقًا تمام الاستغراق، وقد أغمض عينيه.

وعندما انتهى سـد هارتا وامتد الصمت بينهما برهة طويلة، قال

ڤازوديڤا: «لقد حدث ما فكرت فيه، لقد تحدث إليك النهر، وأظهر صداقته لك أنت أيضًا. إنه يتحدث إليك هذا طيب.. طيب جدًّا.. امكث معي، يا سـد هارتا، يا صديقي كانت لي زوجة، وكان سريرها إلى جوار سريري، ولكنها ماتت منذ أمد بعيد. وقد عشت وحدي منذ ذلك الحين. تعال وعش معي.. هناك مكان وطعام لكلينا».

قال سـد هارتا: «أشكرك. أشكرك وأقبل. كما أشكرك يا ڤازوديڤا على حسن إصغائك، قلة من الناس تعرف كيف تنصت، ولم ألتق بشخص يستطيع أن يفعل ذلك مثلك.. وسأتعلم منك أيضًا في هذا المجال».

قال ڤازوديڤا: «سوف تتعلم ذلك، ولكن، ليس مني، لقد علمني النهر أن أستمع. وستتعلم منه أنت أيضًا. النهر يعرف كل شيء. ويستطيع المرء أن يعرف منه كل شيء. لقد تعلمت من النهر فعلًا أن من الخير أن يجاهد المرء إلى أسفل، أن يغوص، وأن يبحث في الأعماق. وسيصبح سـد هارتا الغني المرموق مجذِّفًا. سـد هارتا البرهمي الفقيه.. ملّاحًا، هذا ما تعلمته من النهر أيضًا. وستتعلم الشيء الآخر أيضًا».

وبعد سكتة طويلة، قال سـد هارتا: «وما هو هذا الشيء الآخر يا ڤازوديڤا؟» فنهض ڤازوديڤا قائلًا: «لقد تأخر الوقت، دعنا نذهب للنوم.. لا أستطيع أن أخبرك عما يكون ذلك الشيء الآخر، يا

صديقي سوف تكتشفه ولعلك تعرفه فعلًا. إنني لست من رجال العلم، ولا أحسن الكلام والتفكير، كل ما أحسنه هو الإصغاء، وأن أكون مؤمنًا، وخلاف ذلك لم أتعلم شيئًا، ولو أنني كنت أستطيع الحديث والتعليم، فربما أصبحت معلمًا. ولكني لست إلا ملَّاحًا وعملي هو أن أعبر بالناس هذا النهر. وقد عبرت بآلاف الناس، ولم يكن نهري بالنسبة إليهم غير عقبة في طريق رحلتهم. كانوا يسافرون من أجل المال أو العمل، أو من أجل حفلات الزفاف، أو رحلات الحج.. وكان النهر يعترض طريقهم.

«وكان الملَّاح هناك ليجتاز بهم سريعًا تلك العقبة.. ومع ذلك كان بين هؤلاء الآلاف قلة من الأفراد.. أربعة أو خمسة لم يكن النهر في نظرهم عقبة.. لقد استمعوا إلى صوته، وأنصتوا إليه. فأصبح النهر مقدسًا بالنسبة إليهم، كما هو بالنسبة لي.. دعنا الآن نذهب إلى الفراش، يا سـد هارتا».

وأقام سـد هارتا مع الملّاح، وتعلم منه كيف يعني بالزورق. وعندما لم يكن ثمة ما يفعله عند المرسى، كان يعمل في حقل الأرز مع ڤازوديڤا، ويجمع الحطب، ويقطف الثمار من أشجار الموز. وتعلم صناعة المجاذيف، وإصلاح الزورق، وصناعة السلال، وكان سعيدًا بكل ما يصنعه ويتعلمه. ومرت الأيام والشهور سراعًا، ولكنه تعلم من النهر أكثر مما يستطيع ڤازوديڤا أن يعلمه.. تعلم منه

باستمرار، تعلم منه قبل كل شيء كيف ينصت، كيف ينصت بقلب ساكن، بروح مترقبة مفتوحة، دون انفعال، دون شهوة، دون حكم، دون آراء.

وعاش سعيدًا مع ڤازوديڤا، وكانا يتبادلات الكلمات من حين إلى آخر.. كلمات قلائل موزونة، فلم يكن ڤازوديڤا من عشاق الكلمات. ونادرًا ما كان سـد هارتا ينجح في إغرائه بالكلام. وسأله ذات مرة: «هل تعلمت أيضًا ذلك السر من النهر، وهو أنه يوجد شيء اسمه الزمان؟» وشاعت ابتسامة مشرقة فوق وجه ڤازوديڤا، قال: «أجل يا سـد هارتا. أهذا ما تعنيه؟! أن النهر في كل مكان في الوقت نفسه.. في المنبع وفي المصب.. في الشلال والمرسى، في التيار والمحيط وفي الجبال، وفي كل مكان. وأن الحاضر هو وحده الموجودة بالنسبة إليه، لا ظل الماضي ولا ظل المستقبل».

قال سـد هارتا: «هذا ما أعنيه.. وعندما تعلمت ذلك استعرضت حياتي، وكانت هي أيضًا نهرًا. الرجل الناضج، وسـد هارتا الشيخ العجوز لم يفصل أحدهما عن الآخر إلا الظلال فحسب، دون أن يفصل بينهما الواقع.. وحيوات سـد هارتا السابقة لم تكن أيضًا في الماضي، كما أن موته ورجوعه إلى براهما لن يكونا في المستقبل، لم يوجد شيء في الماضي، ولن يوجد شيء في المستقبل، ولكل شيء واقع وحضور». كان سـد هارتا يتحدث مسرورًا، فهذا الكشف

جعله في غاية من السعادة. أليست الأحزان جميعًا في الزمان إذن، وكل تعذيب للنفس، وكل خوف من الزمان. ألا يتم التغلب على المصاعب جميعًا، وعلى الشر في العالم حالما يتغلب المرء على الزمان، حالما يبدد الإنسان الزمان؟ كان يتحدث مبتهجًا، غير أن ڤازوديڤا اكتفى بابتسامة مشرقة، وبإطراقة من رأسه، علامة الموافقة. وربت على كتف سـد هارتا وعاد إلى عمله.

وذات مرة أخرى عندما انتفخت أوداج النهر خلال الموسم المطير، وأخذ يزمجر عاليًا، قال سـد هارتا: «أليس من الحق يا صديقي، أن للنهر أصواتًا كثيرة جدًّا؟ أليس له صوت ملك ومحارب وثور، وطائر ليلي، وامرأة حبلى، ورجل متنهد، وآلاف الأصوات الأخرى؟».

فأومأ ڤازوديڤا موافقًا: «هذا صحيح. إن أصوات المخلوقات جميعًا في صوته..».

وواصل سـد هارتا حديثه: «تعلم أية كلمة ينطقها عندما ينجح المرء في الاستماع إلى أصواته الآلاف العشرة جميعًا في وقت واحد؟».

فضحك ڤازوديڤا ضحكة مرحة، وانحنى صوب صوب سـد هارتا، وهمس في أذنه باسم «أوم» المقدس. وكان هذا هو ما سمعه سـد هارتا.

وكلما مضى الزمن بدأت ابتسامته تشبه ابتسامة الملّاح.. فكادت أن تكون مثلها إشراقًا، وامتلاء بالسعادة، ووضاءة خلال عشرات الغضون الصغيرة، وطفولية، وشيخوخةً. وكان كثير من المسافرين الذين يرون الملَّاحين معًا يعتقدون أنهما شقيقان. وفي كثير من الأحيان، كانا يجلسان معًا في المساء على جذع الشجرة عند شاطئ النهر، وهما ينصتان صامتين إلى الماء الذي لم يكن بالنسبة إليهما مجرد ماء، بل صوت الحياة.. صوت الوجود.. صوت الصيرورة الدائمة.

وكان يحدث في بعض الأحيان أثناء استماعهما للنهر، أن تخطر لهما نفس الأفكار..

وربما كانت عن محادثة بينهما في اليوم السابق، أو عن مسافر شغل مصيره وظروفه عقليهما، أو ربما كانت عن الموت، أو عن طفولتهما. وعندما كان النهر يفضي إليهما بشيء حسن في نفس اللحظة كانا ينظران أحدهما إلى الآخر، وهما يفكران نفس الفكرة، وكلاهما سعيد بنفس الإجابة عن السؤال نفسه.

كان شيء ما يشيع في المرسى ومن المَلَّاحين.. شيء شعر به كثير من المسافرين. فقد يحدث أحيانًا أن يبدأ مسافر- بعد أن ينظر إلى وجه واحد من الملّاحين- في الحديث عن حياته وعن متاعبه، وقد يعترف بخطاياه، ويطلب العزاء والنصيحة. وقد يحدث

أحيانًا أخرى أن يطلب شخص آخر السماح له بقضاء المساء معهما للاستماع إلى النهر.. وحدث أيضًا أن أقبل كثير من الفضوليين الذين قيل لهم إن هناك حكيمين أو ساحرين أو قديسين يعيشان عند المرسى. وكان هؤلاء الفضوليين يوجهون أسئلة كثيرة، ولكنهم لا يتلقون عنها أية أجوبة. كما أنهم لا يجدون سحرة أو حكماء، كل ما كانوا يجدونه شيخين صديقين يبدو أنهما مصابان بالبكم، وغرابة الأطوار، والغباء.. وكان الفضوليون يضحكون ويسخرون من حماقة الناس، وسرعة تصديقهم حين ينشرون مثل تلك الشائعات الخرافية.

ومضت الأعوام، دون أن يتناولهما بالذكر أحد. وذات يوم أتى بعض النساك من أتباع جوتاما البوذا وطلبوا أن يجتازوا النهر. وعلم منهم الملّاحان أنهم عائدون إلى معلمهم العظيم بأسرع ما يمكن، فقد انتشرت الأنباء بأن المستنير في حالة خطرة من المرض، وربما كان يعاني سكرات الموت الأخيرة ليبلغ الخلاص. ولم يلبث أن وصل فوج آخر من النساك، يتبعه فوج آخر. ولم يكن النساك وكذلك معظم المسافرين الآخرين يتحدثون عن شيء آخر غير جوتاما وموته الوشيك. وكما يتقاطر الناس من كل حدب وصوب لتكوين حملة حربية أو لمشاهدة تتويج ملك، فكذلك اجتمعوا كأسراب النحل، وكأنما يجتذبهم مغناطيس؛ ليذهبوا حيث رقد بوذا الجليل على فراش موته، حيث يقع هذا الحدث العظيم، وحيث ينتقل مخلِّص

عصر بأكمله إلى رحاب الأبدية.

وفي هذه الآونة، فكر سـد هارتا مليًا في هذا الحكيم المحتضر الذي نَبَّه صوته الآلاف، صوته الذي استمع إليه هو أيضًا، وملامحه المقدسة الذي نظر إليها أيضًا ذات مرة في رهبة.

وكان تفكيره فيه ممتزجًا بالحب. وتذكر سبيله المؤدي إلى الخلاص، وابتسم متذكرًا الكلمات التي تفوه بها ذات مرة أثناء شبابه للمستنير. وبدت له هذه الكلمات وقحة فجّة، فقد ظل يعرف مدة طويلة أنه لم ينفصل عن جوتاما وإن لم يكن قادرًا على قبول تعاليمه. كلّا، إن الباحث الصادق لا يستطيع أن يقبل أية تعاليم، إن كان يريد مخلصًا أن يجد شيئًا. بيد أن هذا الذي وجد، يمكن أن يوافق على كل مسلك، وعلى كل هدف، فلا شيء يفصله عن جميع الآلاف الآخرين الذين يحيون في الأبدية، ويتنفسون ما هو إلهي.

وذات يوم بينما كانت أفواج كثيرة من الناس يحجون إلى بوذا المحتضر، كانت كمالة أيضًا- وهي أجمل الغانيات في زمانها- في طريقها إليه. وكانت قد انسحبت من طريقتها السابقة في الحياة، وأهدت حديقتها لنساك جوتاما، ولاذت بتعاليمه، وانتسبت إلى النسوة والمحسنات المنضمات إلى الحجيج. وعندما سمعت بموت جوتاما الوشيك، شرعت في الرحيل على قدميها، مرتدية أبسط الثياب، مصطحبة ابنها. وفي طريقهما، بلغا النهر، غير أن

الصبي كان قد أنهكه التعب، فأراد أن يعود إلى البيت ليستريح ويأكل. وكان مشاكسًا بكَّاءً، فكان لزامًا على كمالة أن تبقى معه في كثير من الأحيان، فاعتاد أن يضع إرادته في مضاد إرادتها.. وكان عليها أن تطعمه، وأن تهيئ له وسائل الراحة، وأن تؤنبه من حين إلى آخر.. ولم يستطع أن يفهم لماذا تقوم أمه بهذه الرحلة المتعبة التعسة إلى مكان مجهول.. إلى رجل غريب مقدس يحتضر. فليمت. ما شأن الغلام بهذه المسألة؟

ولم يكن الحجيج بعيدين عن مرسى ڤازوديڤا، عندما طلب سـد هارتا الصغير من أمه أن يستريح. وكانت كمالة نفسها منهكة. فبينما كان الغلام يأكل إصبعًا من الموز، اضطجعت على الأرض، وأغمضت عينيها نصف إغماضة وأخلدت إلى الراحة. وفجأة أطلقت صرخة ألم، فذعر الغلام ونظر إليها، فرأى وجهها شاحبًا من الرعب.. فمن تحت ملابسها زحف ثعبان صغير أسود بعد أن عض كمالة..

وهرع الاثنان ليلحقا ببعض الناس.. وعندما اقتربا من المرسى، انهارت كمالة، وعجزت عن المضي إلى أبعد من ذلك. وصرخ الغلام مستنجدًا، وهو يقبل أمه في تلك الأثناء ويعانقها..

وانضمت إليه أيضًا في صرخاته المدوية جماعة من الحجيج، حتى تناهت الأصوات إلى ڤازوديڤا الذي كان يقف عند المرسى،

فهرول إليهما، وأخذ المرأة بين ذراعيه، وحملها إلى الزورق.. ولحق به الغلام. وسرعان ما وصلوا إلى الكوخ حيث كان يقف سد هارتا محاولًا إشعال النار. ورفع عينيه فكان أول ما رأى وجه الغلام الذي ذكره تذكيرًا غامضًا بشيء ما. ثم رأى كمالة التي تعرَّف عليها فورًا، رغم أنها رقدت مغشيًا عليها بين ذراعي الملّاح.. ثم علم فيما بعد أن الوجه الذي ذكره بشيء ما هو إلا وجه ابنه.. وأسرع وجيب قلبه..

وغسل جرح كمالة، ولكنه كان قد اسوّد فعلًا، وكذلك انتفخ جسدها، فأعطيت دواء مقويًّا يساعد على إعادة الوعي، فثابت إلى وعيها، وكانت ترقد على سرير سد هارتا، وفي كوخه، وكان سد هارتا الذي أحبته ذات يوم حبًّا جمًّا.. ينحني عليها، وظنت أنها تحلم.. فابتسمت وهي تنظر إلى وجه عشيقها، وشيئًا فشيئًا، أدركت حالتها، وتذكرت عضة الثعبان فنادت متلهفة على ابنها، وتذكرت سد هارتا: «لا تخافي.. إنه هنا».

ونظرت كمالة في عينيه.. كانت تجد مشقة في الكلام والسم يسري في عروقها، قالت: «لقد طعنت في السن يا عزيزي، وصرت أشيب. ولكنك مثل الساماني الشاب الذي أتى إليَّ في حديقتي بلا ثياب، وبقدمين متربتين، أنت أشد شبهًا به الآن منك عندما تركت كاما سوامي وتركتني. عيناك مثل عينيه يا سد هارتا. آه.. وأنا أيضًا

أصبحت عجوزًا.. عجوزًا.. هل عرفتني؟» فابتسم سـد هارتا: «عرفتك على الفور يا عزيزتي كمالة».

وأشارت كمالة إلى ابنها وقالت: «وهل عرفته هو أيضًا؟ إنه ابنك».

ثم زاغت عيناها وأُغمضتا. وشرع الصبي في البكاء. فأقعده سـد هارتا على ركبته، وتركه يبكي وهو يسوي شعره. ولما نظر إلى وجه الغلام تذكر صلاة برهمية تعلمها يومًا ما عندما كان طفلًا صغيرًا. وفي صوت بطيء أغن، شرع في إنشادها، وتواردت عليه الكلمات من الماضي، ومن طفولته، وهدأ الطفل أثناء إنشاده، وإن ظل ينشج قليلًا حتى غلبه النعاس.. فأرقده سـد هارتا على سرير ڤازوديڤا.. بينما وقف هذا الآخر أمام الموقد يطهو أرزًا ونظر إليه سـد هارتا، فابتسم ڤازوديڤا.

قال سـد هارتا في هدوء: «إنها تحتضر.. إنها تحتضر». وأطرق ڤازوديڤا برأسه. وكانت ألسنة اللهيب المشتعلة في الموقد تنعكس على وجهه العطوف. واستعادت كمالة وعيها، وكان الألم مرتسمًا على وجهها، وقرأ سـد هارتا العذاب على وجهها.. وقرأ سـد هارتا العذاب على ثغرها وعلى وجهها الشاحب.. وقرأه هادئًا، منتبهًا، مترقبًا، مشاركًا لها. وكانت كمالة على وعي بذلك، وأخذت نظرتها تبحث عن نظرته.

ونظرت إليه قائلة: «أرى الآن أن عينيك قد تغيرتا أيضًا. لقد صارتا مختلفتين كل الاختلاف، كيف أعرف أنك ما زلت سـد هارتا؟ أنت سـد هارتا، ولكنك مع ذلك لا تشبهه».

فلم يتكلم سـد هارتا، بل نظر في عينيها صامتًا. سألته: «هل وصلت إليه؟ هل وجدت السلام؟» فابتسم ووضع راحته على راحتيها..

قالت: «أجل.. إنني أرى ذلك.. وأنا أيضًا سأجد السلام..».

فهمس سـد هارتا: «لقد وجدته».

ونظرت إليه كمالة نظرة ثابتة. كانت نيتها تتجه إلى القيام برحلة حج إلى جوتاما لمشاهدة وجهه المستنير، والحصول على شيء من السلام الذي يشع منه. ولكنها لم تجد إلاه.. «أي سـد هارتا». وكان ذلك خيرًا لا يقل عن الخير الذي يمكن أن تناله في حالة مشاهدتها للآخر. كانت تريد أن تقول له هذا، غير أن لسانها لم يعد يطاوع إرادتها. ونظرت إليه صامتة، فرأى الحياة تذوي في عينيها. وعندما فاض الألم الأخير من عينيها، وسرت القشعريرة الأخيرة في بدنها، أغمض جفنيها بأصابعه.

وجلس هناك برهة طويلة شاخصًا إلى وجهها الميت، وإلى ثغرها.. ثغرها العجوز المتهالك، وإلى شفتيها المتقلصتين. وتذكر كيف شبه شفتيها ذات مرة في ربيع العمر بتينة تم قطافها منذ لحظة. وظل ينظر

إلى الوجه الشاحب فترة طويلة مدققًا.. وإلى التجاعيد المكدودة.. ورأى وجهه هو أيضًا شبيهًا به.. شاحبًا كشحوبه.. ميتًا كموته. وفي الوقت نفسه شاهد وجهه ووجهها، نضيرًا، بشفتين ورديتين، وعينين متحمستين. وطغى عليه شعور بالوجود الحاضر المعاصر. وفي هذه الساعة أحس إحساسًا أشد حدة بأن الحياة لا تفنى.. كل حياة، وبأبدية كل لحظة.

وعندما نهض، كان ڤازوديڤا قد أعد له شيئًا من الأرز، غير أن سد هارتا لم يأكل شيئًا. وفي الحظيرة حيث توجد العنزة، فرش الشيخان شيئًا من القش، ورقد ڤازوديڤا.. أما سد هارتا، فقد ذهب إلى الخارج، وجلس أمام الكوخ طيلة الليل، مصغيًا إلى النهر، مستغرقًا في الماضي، متأثرًا ومحصورًا في وقت واحد بكل مراحل حياته، وكان يقوم من حين إلى آخر، ويمشي إلى باب الكوخ، متنصتًا عسى أن يكون الغلام نائمًا.

وفي الصباح الباكر، قبل أن تظهر الشمس خرج ڤازوديڤا من الحظيرة، وسار إلى صديقه ثم قال: «إنك لم تنم».

– كلا يا ڤازوديڤا، وإنما جلست هنا مصغيًا للنهر، وقد أفضى إليَّ بالكثير، وملأني بأفكار عظيمة عديدة، بأفكار عن الوحدة.

– لقد تعذبت يا سد هارتا، ومع ذلك أرى أن الحزن لم يدخل قلبك!

– كلّا يا صديقي العزيز. ولماذا ينبغي أن أكون حزينًا؟ أنا الذي كنت غنيًّا وسعيدًا، قد أصبحت الآن أغنى وأسعد. وهذا هو ابني يوهب إليَّ.

– وأنا أيضًا أرحب بابنك. والآن دعنا نذهب إلى العمل يا سد هارتا، وأمامنا أعمال كثيرة. لقد ماتت كمالة على نفس السرير الذي ماتت عليه زوجتي، وستبنى أيضًا محرقة كمالة الجنائزية على نفس الربوة التي بنيت عليها محرقة زوجتي.

وبينما كان الغلام نائمًا، أخذا يبنيان محرقة جنائزية.

* * *

الفصل العاشر

الابـــن

وشاهد الصبي- مذعورًا باكيًا- دفن أمه. واستمع إلى سـد هارتا- وجلًا حزينًا- وهو يستقبله بوصفه ابنه، ويرحب به في كوخ ڤازوديڤا. وكان يجلس أيامًا بأكملها فوق ربوة الأموات شاحب الوجه، شاخص البصر إلى الأفق البعيد، موصدًا قلبه، مناضلًا مجاهدًا ضد قدره.

وعامله سـد هارتا بكثير من الرعاية، وتركه لوحدته، فقد كان يحترم حزنه. وكان سـد هارتا يدرك أن ابنه لم يعرفه، ومن ثم لا يستطيع أن يحبه كما يحب الابن أباه. ورويدًا رويدًا، رأى، وتحقق أيضًا، أن الغلام الذي يبلغ من العمر أحد عشر عامًا كان ابن أمه

المدلل، وأنه نشأ على عادات الموسرين، وأنه اعتاد على الطعام الفاخر، والفراش الناعم، وعلى إصدار الأوامر إلى الخدم والحشم. وأدرك سـد هارتا أن الصبي المدلل الحزين لا يمكن أن يكون راضيًا، هكذا فجأة، في مكان غريب فقير، فلم يضغط عليه، وصنع الكثير من أجله. وكان يدخر له دائمًا أفضل الطعام، وكان يأمل أن يكسب مشاعره تدريجيًّا بالصبر الودود. وكان يعتبر نفسه غنيًّا سعيدًا عندما جاء الصبي إليه، ولكن مع مضي الزمن، وبقاء الصبي على حاله من المشاكسة والبغضاء، وعندما ظهرت غطرسته وتحديه وامتناعه عن أداء أي عمل، وحينما لم يبد منه أي احترام للشيخين، وانكشفت سرقاته من أشجار الفاكهة التي يمتلكها ڤازوديڤا، أخذ سـد هارتا يدرك أن ابنه لم يجلب إليه السعادة والسلام، بل جلب إليه الحزن والكدر. ولكنه كان يحبه ويؤثر الحزن والكدر اللذين يجلبهما هذا الحب على السعادة والسرور بغير الغلام.

ومنذ أن أقام سـد هارتا الصغير في الكوخ، تقاسم الشيخان العمل، فأخذ ڤازوديڤا على عاتقه كل الأعمال التي تتعلق بالمرسى، على حين تحمل سـد هارتا جميع الأعمال التي ترتبط بالكوخ والحقول، لكي يكون بجانب ابنه.

وانتظر سـد هارتا صابرًا شهورًا عديدة على أمل أن يتمكن ابنه من فهمه، وقبول حبه، بل ربما بادله هذا الحب. ولاحظ ڤازوديڤا

هذا كله شهورًا متعاقبة، وانتظر هو الآخر صامتًا. وذات يوم بينما كان سـد هارتا الصغير يكرب أباه بتحديه، ومزاجه الحاد، وبتحطيمه طاستي الأرز، انتحى ڤازوديڤا، بصديقه جانبًا، وتحدث إليه في المساء. قال: «فلتغفر لي، فأنا أحدثك بوصفك صديقي، وأستطيع أن أرى أنك مهموم شقي.. إن ابنك يا صديقي العزيز، يعكر صفو حياتك، وحياتي أنا أيضًا. فالطائر الصغير تعود على حياة مختلفة، على عش مختلف.

«وهو لم يهرب من حياة الترف والمدينة بشعور الغثيان والقرف كما فعلت أنت، لقد ترك هذه الأشياء جميعًا رغم إرادته. ولقد سألت النهر يا صديقي.. سألته مرارًا، فضحك النهر، ضحك مني، وضحك منك. كانت أعطافه تهتز ضحكًا من حماقتنا. فالماء ينساب إلى الماء.. والشباب إلى الشباب. إن ابنك لن يكون سعيدًا في هذا المكان. اسأل النهر وأنصت إلى ما يقول».

ونظر سـد هارتا حائرًا إلى الوجه العطوف الذي انتشرت على صفحته غضون كثيرة ذات طبيعة خيرة. قال بصوت ناعم: «وكيف أستطيع الافتراق عنه؟ امنحني مزيدًا من الوقت يا صديقي العزيز. أنا أجاهد من أجله، وأحاول الوصول إلى قلبه، وسأكسبه بالحب والصبر، وسيتحدث إليه النهر هو أيضًا ذات يوم. إنه مدعوٌّ أيضًا».

وأضحت ابتسامة ڤازوديڤا أكثر دفئًا، قال: «أوه، أجل، هو أيضًا

مدعو، وهو أيضًا ينتمي إلى الحياة الأبدية. ولكن هل تعرف، أو أعرف أنا، إلام يُدْعى؟ وإلى أي سبيل وإلى أية أفعال وأية أحزان؟ إن أحزانه لن تكون طفيفة، فقلبه متكبر صلب، ومن المحتمل أن يقاسي الكثير، وأن يرتكب كثيرًا من الأخطاء، ويقع في كثير من الظلم، ويقارف كثيرًا من الخطايا.. أخبرني يا صديقي.. أتقوم بتربية ابنك؟ أهو مطيع؟ أتضربه أم تعاقبه؟».

– كلّا يا ڤازوديڤا. أنا لا أفعل شيئًا من هذا.

– أعرف ذلك فأنت لست صارمًا معه، وأنت لا تعاقبه. ولا تأمره لأنك تعلم أن اللطف أقوى من القسوة، وأن الماء أقوى من الصخر، وأن الحب أقوى من العنف. حسن جدًّا.. وأنا أثني عليك، ولكن ربما كنت مخطئًا لأنك لست صارمًا معه، ولأنك لا تعاقبه. ألا تقيده بحبك؟ ألا تخجله يوميًّا بطيبتك وصبرك، وتجعل الأمور أشد عسرًا بالنسبة إليه؟ ألا ترغم هذا الغلام المتعجرف المدلل على العيش في كوخ مع شيخين من أكلة الموز، حتى ليعد الأرز بالنسبة إليهما ترفًا. ولا يمكن أن تتفق أفكارهما مع أفكاره، ولهما قلبان عجوزان هادئان، ينبضان نبضًا مختلفًا عن نبض قلبه؟ ألا تراه مقهورًا نزل به العقاب بسبب هذا كله؟».

ونكس سـد هارتا رأسه متحيرًا، ثم سأل في وهن: «وماذا ترى أن أفعل؟».

قال ڤازوديڤا: «خذه إلى المدينة. خذه إلى بيت أمه. هناك سيكون الخدم. خذه إليهم فإن لم يكونوا هناك خذه إلى معلم، لا بغرض التربية فحسب، ولكن لكي يلتقي بصبيان وبنات آخرين، ويكون وسط العالم الذي ينتمي إليه. ألم تفكِّر في هذا قط؟» قال سـد هارتا في أسى: «تستطيع أن تستشف ما في قلبي. لقد فكرت في ذلك كثيرًا. ولكن كيف يستطيع وهو يملك مثل هذا القلب المتحجر، أن يسلك في هذه الدنيا؟ ألن يعتبر نفسه أعلى من الآخرين. ألن يفقد نفسه في الملذات والسلطان؟ ألن يكرر جميع أخطاء أبيه؟ ألن يضيع تمام الضياع في سانسارا «عالم الحسن والمظاهر؟»».

وابتسم الملّاح مرة أخرى، ولمس ذراع سـد هارتا في رفق وقال: «اسال النهر عن ذلك يا صديقي، وأنصت إليه واضحك منه. أتظن حقًّا أنك قد ارتكبت ما ارتكبت من حماقات لكي تحمي ابنك منها؟ أتستطيع أن تحمي ابنك من سانسارا وكيف؟ عن طريق التعليم أو الصلوات أو الموعظة؟ يا صديقي العزيز.. أنسيت تلك القصة المثيرة عن سـد هارتا ابن البرهمي التي رويتها لي هنا ذات مرة؟ من الذي حمى سـد هارتا السامانى من سانسارا.. من الخطيئة والطمع والحماقة؟! أكان من الممكن أن تعصمه تقوى أبيه، وعظات معلمه، ومعرفته الخاصة، وبحثه الخاص؟ أي والد، وأي معلم يمكن أن يحول بينه وبين أن يحيا حياته الخاصة، من أن يلوث نفسه بالحياة،

وأن يحمل نفسه بالإثم وأن يتجرع الشراب المر بنفسه، وأن يجد سبيله الخاص؟ أتظن يا صديقي العزيز أن أحدًا يمكن أن يتجنب هذا السبيل؟ ربما كان ابنك الصغير، لأنك تريد أن تراه بمأمن من الحزن والألم وتبدد الأوهام، ولكن لو أنك مت من أجله عشر مرات، فلن تغير من مصيره قيد شعرة».

ولم يكن ڤازوديڤا قد تحدث بمثل هذه الاستفاضة من قبل، فشكره سـد هارتا في مودة، وذهب إلى الكوخ مضطرب النفس، فلم يستطع النوم. إن ڤازوديڤا لم يخبره بشيء لم يكن قد فكّر فيه فعلًا، وتوصل إليه بنفسه. بيد أن حبه لابنه، وتفانيه وخوفه من فقدانه، كان أقوى من معرفته. هل أفنى قلبه في أي إنسان هذا الفناء التام؟ وهل أحب قط أحدًا مثل هذا الحب الأعمى المؤلم البائس، ومع ذلك كله يشعر بالسعادة؟

ولم يستطع سـد هارتا أن يأخذ بنصيحة صديقه، ولم يستطع أن يتخلى عن ابنه. فكان يسمح للغلام أن يتأمّر عليه، وألا يرجو له وقارًا. كان صامتًا ينتظر، وفي كل يوم يبدأ معركته الخرساء بالصبر، ومحاولة اكتساب صداقة ابنه. وكان ڤازوديڤا أيضًا صامتًا ينتظر في مودة وتفهم واحتمال. كان كل منهما أستاذًا في الصبر.

وذات يوم عندما ذكره وجه الغلام بكمالة، تذكر سـد هارتا فجأة شيئًا أخبرته به كمالة ذات مرة منذ أمد بعيد. قالت له إنك لا تستطيع أن تحب. واتفق معها في هذا الرأي وشبّه نفسه بنجم، وشبّه

الآخرين بأوراق متساقطة. ومع ذلك أحس في كلماتها بشيء من اللوم. والحق أنه لم يفن قط فناءً تامًّا في شخص آخر بحيث ينسى نفسه. ولم يمر قط بحماقات الحب لشخص آخر. لم يستطع قط أن يفعل شيئًا من هذا..

وحينئذ كان يبدو له أن هذا هو أضخم اختلاف بينه وبين بسطاء الناس. أما الآن بعد أن حضر ابنه، فقد أصبح سـد هارتا واحدًا من الناس، لا يشذ عنهم في شيء. كل ذلك بسبب الحزن والحب. كان يحب بجنون، وكان أحمق بسبب الحب. وها هو يعاني متأخرًا ولأول مرة في حياته أقوى وأغرب عاطفة. كان يتألم ألمًا مبرحًا بسببها. ومع ذلك كان يشعر بالسمو، وبأنه تجدد على نحو ما، وأنه صار أغنى.

كان يشعر حقًّا أن هذا الحب، هذا الحب الأعمى الذي يكنه لابنه، هو عاطفة إنسانية جدًّا، وأنها من قبيل السانسارا، أي جدول عكر ذي مياه عميقة. وكان يشعر في الوقت نفسه أنه ليس عاطفة تافهة، بل شيئًا ضروريًّا ينبع من طبيعته نفسها. وهذه العاطفة، وهذا الألم، وهذه الحماقات، أمور لا بد من معاناتها.

وفي الوقت نفسه، ترك الابن يرتكب حماقاته، وتركه يكافح، وترك أحواله المزاجية المتقلبة تحط من قدره، فلم يكن في أبيه شيء يجتذبه أو شيء يخشاه. كان هذا الأب رجلًا طيبًا، رجلًا مهذبًا

عطوفًا، وربما كان رجلًا تقيًّا، رجلًا مقدسًا، ولكن هذه كلها صفات لا تؤسر الغلام. فهذا الأب الذي يحتفظ به في هذا الكوخ الحقير يبعث في نفسه الضجر.

وعندما يجيب على وقاحته بابتسامة، وعلى كل إهانة بالود، وعلى كل شقاوة بالعطف، فهذا هو أبغض مكر يبديه الثعلب العجوز. وكان الغلام يؤثر أن يلجأ أبوه إلى التهديد، وإلى سوء المعاملة.

وجاء يوم أفضى فيه سـد هارتا الصغير بكل ما يدور في ذهنه وحمل على أبيه جهارًا. وكان أبوه قد طلب منه أن يجمع بعض الأغصان. ولكن الغلام أبى أن يبرح الكوخ.. ووقف هناك متحديًا حانقًا، يضرب الأرض بقدميه، ويضم قبضته وصرح بكراهيته.. واحتقاره في وجه أبيه تصريحًا عنيفًا.

صاح مزبدًا: «أحضر أغصانك فلست خادمك، وأنا أعلم أنك لا تضربني، فأنت لا تجرؤ على ذلك، ومع ذلك أعرف أنك تعاقبني باستمرار، وتجعلني أشعر أيضًا بضآلة شأني بما تظهره من تقوى وتسامح. وأنت تريدني أن أكون مثلك.. تقيًّا.. مهذبًا.. حكيمًا، ولكنني نكاية فيك، أفضل أن أصبح لصًّا قاتلًا وأن أذهب إلى الجحيم، عن أن أكون مثلك. إنني أمقتك وأنت لست أبي، حتى لو كنت عشيق أمي عشرين مرة!».

كان مشحونًا بالثورة والتعاسة، فوجد متنفسًا له في سيل من الألفاظ الوحشية الحانقة يصبه على أبيه، ثم انطلق الغلام مسرعًا إلى الغابة. ولم يعد إلا في ساعة متأخرة في المساء. وفي صباح اليوم التالي اختفى تمامًا. وكذلك اختفت سلة صغيرة ذات لونين من الليف كان الملّاحان يحتفظان فيها بالعملات النحاسية والفضية التي يتلقيانها أجرًا لهما. والقارب ذهب هو الآخر، بيد أن سـد هارتا لمحه على الضفة الأخرى من النهر.. لقد هرب الغلام. قال سـد هارتا: «يجب أن أتعقبه». وكان في حالة من الكرب العظيم منذ أن ألقى الغلام في وجهه بتلك الألفاظ الجارحة في اليوم السابق: «لا يستطيع طفل أن يجتاز الغابة وحده. لا بد أن يصيبه مكروه.. لا بد من أن نصنع رمثًا يا ڤازوديڤا.. لكي نعبر النهر».

قال ڤازوديڤا: «سنصنع الرمث لكي نبحث عن زورقنا الذي أخذه الغلام بعيدًا.. ولكن دعه يذهب يا صديقي، إنه لم يعد طفلًا، ويعرف كيف يعتني بنفسه.. إنه يبحث عن الطريق إلى المدينة، وهو على حق. لا تنس ذلك، إنه يفعل ما أهملته أنت نفسك.. إنه يبحث عن نفسه.. وهو يسلك سبيله الخاص. أوه.. يا سـد هارتا.. أستطيع أن أرى معاناتك، معاناتك لألم ينبغي أن يضحك منه المرء.. وسرعان ما ستضحك منه أنت نفسك».

ولم يجب سـد هارتا. كان يقبض على البلطة بيديه فعلًا، وشرع

في بناء رمث من البامبو، و ساعده ڤازوديڤا على ربط الأعواد معًا بحبل من الحشائش، ثم أبحرا عبر النهر الذي حملهما بعيدًا. ولكنهما وجها الرمث ضد التيار إلى الشاطئ الآخر. سأل سـد هارتا: «لماذا أحضرت البلطة معك؟» فأجاب ڤازوديڤا: «من الممكن أن يكون مجداف زورقنا قد ضاع..».

غير أن سـد هارتا كان يعلم ما يفكر فيه صديقه. فمن المحتمل أن يكون الصبي قد ألقى المجداف بعيدًا، أو كسره على سبيل الانتقام، ولكي يحول بينهم وبين تعقبه. وفعلًا لم يكن هناك مجداف في القارب. وأشار ڤازوديڤا إلى قاع القارب، وابتسم، وكأنما يقول لصديقه: ألا ترى ما يريد ابنك أن يقول؟ ألا ترى أنه لا يريد أن يتبعه أحد؟ ولكنه لم يقل ذلك في كلمات، وشرع في صنع مجداف جديد. واستأذنه سـد هارتا ليبحث عن الصبي، فلم يعترض ڤازوديڤا سبيله.

وجاس سـد هارتا خلال الغابة وقتًا طويلًا حتى خطرت له هذه الفكرة، وهي أن بحثه لا طائل وراءه. فإما أن يكون الغلام قد غادر الغابة منذ وقت طويل وبلغ المدينة، أو إذا كان لا يزال في طريقه فسوف يختفي عن متعقبه. وعندما أنعم الفكر.. وجد أنه ليس منزعجًا بسبب ابنه.. فهو يعلم في قرارة نفسه أنه لن يصادف ما يؤذيه، وأن الخطر لا يتهدده في الغابة. ومع ذلك واصل سيره حثيثًا، لا رغبة في إنقاذه، بل رغبة في رؤيته مرة أخرى.. وسار حتى بلغ

ضواحي المدينة.

وعندما وصل إلى الطريق الرحيب القريب من المدينة.. وقف ساكنًا عند مدخل روض المتعة البديع الذي كان ملكًا لكمالة ذات يوم.. حيث رآها فوق مقعد.. وانبعث الماضي حيًّا أمام عينيه..

فشاهد نفسه مرة أخرى واقفًا هناك.. شابًّا سامانيًّا ملتحيًا عاريًا قد ملأ الغبار شعره.. ووقف سد هارتا هناك زمنًا طويلًا، ونفذ ببصره خلال البوابة المفتوحة إلى الحديقة.. وهناك شاهد النساك يتسكعون تحت الأشجار الوارفة.. وقف هناك زمنًا طويلًا، يفكر، تلوح له الصور، ويستعيد قصة حياته. وقف هناك زمنًا طويلًا ينظر إلى النسّاك، ويرى في مكانهم سد هارتا وكمالة يسيران تحت الأشجار السامقة.. ورأى نفسه وقد أحاطته كمالة برعايتها، وهو يتلقى منها القبلة الأولى.. ورأى كيف نظر بغطرسة وازدراء إلى أيامه مع السامانى، وكيف بدا مختالًا متلهفًا في حياته الدنيوية. وشاهد كاما سوامي، والخدم، والمآدب، ولاعبي النرد، والعازفين.. ولاح له طائر كمالة المغرد في قفصه. عاش كل شيء مرة أخرى، وتنفس سانسارا، وعاد مرة أخرى عجوزًا متهالكًا، وأحس ثانية بالغثيان وبالرغبة في الموت، وسمع مرة أخرى «أوم» المقدس.

وبعد أن وقف سد هارتا فترة طويلة إزاء بوابة الحديقة.. أدرك أن الرغبة التي ساقته إلى هذا المكان رغبة حمقاء، وأنه لا يستطيع

مساعدة ابنه، كما لا ينبغي أن يفرض نفسه عليه. وأحس بحب عميق للصبي الهارب. وكأنه جرح، ولكنه أحس في الوقت نفسه أن الجرح لن يتقيح فيه، وإنما سرعان ما يلتئم.

ولأن الجرح لم يلتئم في هذه اللحظة، كان حزينًا. وفي مكان الهدف الذي أحضره إلى هنا بحثًا عن ابنه، لم يكن سوى الفراغ فحسب. وجلس على الأرض وقد استبد به الحزن. أحس أن شيئًا يموت في قلبه، لم يعد يرى السعادة أو أي هدف له..

جلس هناك مكتئبًا ينتظر. لقد تعلم هذا من النهر.. أن ينتظر وأن يصبر، وأن ينصت. جلس يصغي في الطريق الأغبر.. يصغي إلى قلبه الذي يخفق مجهدًا حزينًا.. منتظرًا أن يأتيه صوت.. ورقد هناك مرهف السمع ساعات طوالًا، لا تلوح له الرؤى، غائصًا في الفراغ تاركًا نفسه تغوص دون أن يبصر مخرجًا.. وعندما اشتد عليه الجرح، همس بكلمة «أوم»، وملأ نفسه بهذه الكلمة.. وأبصر به النساك الذين يتجولون في الحديقة. ولما كان قد رقد هناك ساعات عديدة، واجتمع الغبار على شعره الأشيب.. فقد أقبل عليه أحد النساك.. ووضع أمامه إصبعين من الموز.. بيد أن الرجل العجوز لم يره.

وأيقظته من غفوته يد تلمس كتفه. وتعرف على هذه اللمسة الحانية الحبيبة، فثاب إلى وعيه، ونهض محييًا ڤازوديڤا الذي كان

قد تعقبه. وعندما أبصر وجه ڤازوديڤا الحنون، ونظر إلى غضون ضحكته الصغيرة، وفي عينيه المتألقتين، ابتسم هو أيضًا. ورأى الآن إصبعي الموز إلى جانبه.. فالتقطهما، وأعطى واحدًا للملّاح، وأكل الآخر.. ثم ذهب صامتًا مع ڤازوديڤا خلال الغابة مرة أخرى عائدًا إلى المرسى. ولم يتحدث أحد منهما عما حدث.. كما لم يذكر أحد منهما اسم الغلام، أو يشير إلى هربه، أو إلى الجرح. واتجه سد هارتا إلى سريره في الكوخ.. وعندما تقدم إليه ڤازوديڤا بعد برهة ليناوله شيئًا من لبن جوز الهند، ألفاه نائمًا.

* * *

الفصل الحادي عشر

أوم

ظل الجرح ينزف زمنًا طويلًا، وكان سد هارتا يعبر النهر بمسافرين كثيرين يصحبون ابنًا أو ابنة. فما كان يستطيع أن يتمالك نفسه من أن يحسدهم، أو يمنع نفسه عن التفكير. الآن، فهناك أناس كثيرون يملكون هذه السعادة العظمى، فلماذا لم أكن أنا؟ حتى الأشرار واللصوص وقطاع الطرق لهم أطفال يحبونهم، ويحبهم أطفالهم، إلا أنا! وعلى هذا النحو الطفولي الذي يتنافى مع المنطق كان يفكر حينذاك. وهكذا ازداد الشبه بينه وبين بسطاء الناس.

إنه ينظر الآن إلى الناس في ضوء مختلف عن ذي قبل: إنها ليست نظرة ذكية جدًّا، أو متكبرة جدًّا، ولكنها مع ذلك، أو من أجل

ذلك، أكثر دفئًا وتعاطفًا، وحبًّا للتعرف.

وعندما يحمل الآن في زورقه الصنف العادي من المسافرين عبر النهر: رجال الأعمال والجنود والنساء، يشعر بأنهم لم يعودوا غرباء عنه كما كانوا من قبل.. وهو وإن لم يكن يفهم أو يشاطرهم أفكارهم وآراءهم، إلا أنه كان يشاطرهم دوافع حياتهم ورغباتها. ومع أنه بلغ مرتبة عالية من ضبط النفس، وتحمل جرحه الأخير في رباطة جأش، فقد شعر الآن وكأن هؤلاء البسطاء من الناس أخوة له. ولم تعد ألوان غرورهم وشهواتهم وتفاهاتهم تبدو له خالية من المعنى، بل أصبحت شيئًا مفهومًا جديرًا بالحب، بل بالاحترام. هناك حب الأم الأعمى لطفلها، والفخر الأعمى الأحمق لأب يزهو بابنه الوحيد، والتطلعات العمياء المتلهفة التي تنظر بها امرأة شابة تافهة للزينة وإعجاب الرجال. هذه الدوافع والرغبات الصغيرة البسيطة الحمقاء.. كلها، وإن تكن قوية حيوية عارمة إلى أقصى حد، لم تعد تبدو تافهة في نظر سـد هارتا. فمن أجلها رأى الناس يعيشون ويصنعون أشياء عظيمة. يسافرون ويشنون الحرب، ويعانون، ويتحملون ما لا يطاق، ومن أجل هذا أحبهم. وشاهد الحياة والحيوية، وما لا سبيل إلى فنائه، ورأى براهما في كل رغباتهم واحتياجاتهم. هؤلاء الناس جديرون بالحب والإعجاب في ولائهم الأعمى، وفي قوتهم العمياء، وإصرارهم الأعمى. وفيما عدا شيئًا واحدًا صغيرًا.. شيئًا ضئيلًا صغيرًا، لم يكن ينقصهم شيء

مما يملكه الحكيم والمفكر، وهذا هو الوعي بوحدة الحياة جميعًا. وكثيرًا ما راود الشك سـد هارتا فيما إذا كانت هذه المعرفة.. هذه الفكرة على مثل هذه القيمة العظمى، ألا يمكن أن تكون هي أيضًا ضربًا من التملق، الذاتي الطفولي للمفكرين الذين ربما كانوا مجرد أطفال مفكرين.. إن أناس هذه الدنيا يتساوون مع المفكرين في كل مجال آخر، بل يتفوقون عليهم في كثير من الأحيان، كما تبدو الحيوانات في تصرفاتها العنيدة المستقيمة في حالات الضرورة متفوقة على بني الإنسان..

وفي أعماق سـد هارتا، أخذت معرفة حقيقة الحكمة والهدف لسعيه الطويل، تنمو وتنضج رويدًا رويدًا. إنها ليست سوى إعداد للروح.. نوع من القدرة.. فن خفي للتفكير والشعور، وتنفس أفكار الوحدة في كل لحظة من لحظات الحياة. هذه الفكرة نضجت فيه نضجًا بطيئًا، وانعكست في وجه ڤازوديڤا العجوز الطفولي: الانسجام ومعرفة الكمال الأبدي للعالم والوحدة..

بيد أن الجرح ما زال واخزًا.. فما برح سـد هارتا يفكر في ابنه في حنين ومرارة، ويرعى حبه وشعوره بالحنان نحوه، فلينخر فيه الألم كما يشاء، وليكابد كل حماقات الحب.. ذلك أن اللهيب لم يطفئ نفسه..

وذات يوم، حينما كان الجرح يوخزه وخزًا أليمًا، أخذ سـد

هارتا يجدف عبر النهر، وقد استهلكه الحنين، فخرج من الزورق بغرض الذهاب إلى المدينة للبحث عن ابنه. وكان النهر ينساب في عذوبة ورقة، فقد كان في موسم الجفاف. غير أن صوته كان يرن رنينًا عجيبًا.. كان يضحك، أجل، كان يضحك ضحكة متميزة. كان النهر يضحك بوضوح ومرح من الملاح العجوز. ووقف سد هارتا جامدًا، وانحنى فوق الماء مرهفًا أذنيه عله يسمع بوضوح أشد.. فشاهد وجهًا منعكسًا في المياه المتحركة بهدوء. وكان في هذا الانعكاس شيء يذكره بشيء نسيه، وعندما انعكس وجهه على صفحة الماء.. تذكر.. كان وجهه يشبه وجه شخص آخر، كان يعرفه ويحبه، بل يخشاه. إنه يشبه وجه أبيه.. البرهمي.. وتذكر كيف أرغم أباه ذات يوم- وكان شابًّا حينذاك- أن يدعه يذهب للانضمام إلى الزُّهاد، وكيف ودعه وارتحل، ولم يعد بعد ذلك أبدًا.. ألم يعاني أبوه أيضًا نفس الألم الذي يعانيه الآن من ابنه؟ ألم يمت أبوه منذ مدة، وحيدًا دون أن يرى ابنه مرة أخرى. ألم يتوقع هذا المصير نفسه؟ أليست هذه ملهاة.. شيئًا غبيًّا. هذا التكرار.. هذا السير للحوادث في دائرة مقدرة؟؟

وضحك النهر.. أجل، هكذا تسير الأمور. كل شيء لم يبلغ نهايته من المعاناة، ولم يبلغ خاتمته النهائية، يعود من جديد، ويعاني الأحزان نفسها. ووثب سد هارتا إلى الزورق مرة أخرى، وجعل

يجدف عائدًا إلى الكوخ متذكرًا أباه، مفكرًا في ابنه، يضحك منه النهر، في مشاقة مع نفسه، مشرفًا على هاوية اليأس، وإن لم يكن أقل ميلًا للضحك بصوت مرتفع من نفسه، ومن العالم أجمع. وما فتئ الجرح يوخزه. وما برح متمردًا على قدره.. ولكنه لم يظفر بعد بالسكينة، وبالتغلب على عذابه. ومع ذلك، كان مفعمًا بالرجاء. وعندما عاد إلى الكوخ، كان ممتلئًا برغبة لا تقهر للاعتراف إلى ڤازوديڤا، للإفصاح بكل شيء، والإفضاء بكل شيء إلى الرجل الذي أجاد فن الإصغاء..

كان ڤازوديڤا جالسًا في الكوخ يضفر سلة، إذ لم يعد يعمل على المعدية، فقد ضعفت عيناه، وكذلك وهنت ذراعاه ويداه.. ولكن السعادة والطمأنينة الراضية كانتا مشرقتين على وجهه دون تغيير..

وجلس سـد هارتا إلى جانب الرجل العجوز، وشرع يتحدث في تؤدة. فأخبره الآن بما لم يذكره من قبل أبدًا، وكيف ذهب إلى المدينة، وتحدث إليه عن جرحه الأليم، وعن حسده لمنظر الآباء السعداء، وعن نضاله اليائس مع نفسه. وذكر كل شيء.. فهو يستطيع أن يبوح له بكل شيء حتى أشد الأشياء إيلامًا. يستطيع أن يصرح بكل شيء، وكشف عن جرحه، وأخبره بهربه ذلك اليوم، وكيف جدَّف عبر النهر بغرض التجول في المدينة، وكيف ضحك النهر.

وكلما مضى في الحديث، واستمع إليه ڤازوديڤا بوجه رزين،

أحس سـد هارتا إحساسًا أشد حدّة عن أي وقت مضى بانتباه ڤازوديڤا الشديد إليه. أحس أن متاعبه وأسباب قلقه تتدفق إليه، ثم تعود مرة أخرى. وكان الكشف عن جرحه لمستمعه مثل غسله في النهر حتى يبرد ليصبح هو والنهر شيئًا واحدًا. وكلما أمعن سـد هارتا في الحديث والاعتراف، ازداد إحساسه بأن الشخص الذي أمامه لم يعد ڤازوديڤا.. لم يعد إنسانًا ينصت إليه. لقد شعر أن هذا المستمع الذي لا يبدي حراكًا، يمتص اعترافه كما يمتص الشجر مياه المطر، وأن هذا الرجل الساكن هو النهر نفسه.. هو الإله نفسه هو الأبدية نفسها. وعندما كف سـد هارتا عن التفكير في نفسه، وفي جرحه، استولى عليه هذا الإدراك للتغيير الذي طرأ على ڤازوديڤا. وكلما تأكد منه، بدا له أقل غرابة، وازداد تأكده بأن كل شيء طبيعي وفي موضعه الصحيح، وأن ڤازوديڤا قد كان منذ مدة طويلة- بل دائمًا تقريبًا- على هذه الحال. كل ما في الأمر أنه لم يكن يدرك ذلك إدراكًا تامًّا، بل إنه هو نفسه لا يكاد يختلف عنه.. وأحس أنه ينظر الآن إلى ڤازوديڤا كما كان الناس ينظرون إلى الآلهة، وأن ذلك لا يمكن أن يدوم. وبدأ يفترق- داخليًّا- عن ڤازوديڤا، وإن واصل حديثه أثناء ذلك.

وعندما انتهى من الكلام، وجه ڤازوديڤا نظرته الواهنة إليه. ولم يتفوه بشيء، غير أن وجهه كان يشع في صمت بالحب والطمأنينة، بالفهم والمعرفة. وتناول يد سـد هارتا، وقاده إلى المقعد على

شاطئ النهر، وجلس إلى جواره، وابتسم للنهر..

قال: «لقد سمعته يضحك، ولكنك لم تسمع كل شيء.. دعنا نصغي وستسمع المزيد».

واستمعا.. وترددت أغنية النهر المتعددة الأصوات في عذوبة. ونظر سـد هارتا في النهر، فأبصر صورًا كثيرة في الماء المنساب.. شاهد أباه وحيدًا، وبأغلال الحنين إلى ابنه البعيد، وشاهد ابنه وحيدًا هو أيضًا، والغلام يتقدم متلهفًا في الطريق المحرق المفروش بشهوات الحياة. كل واحد منهما يركز على هدفه، وكلاهما مملوك بهدفه، وكلاهما يتعذب. كان صوت النهر ينضح بالأسى، وكان يغني في حنين وحزن، ساريًا نحو هدفه.

وسألته نظرة ڤازوديڤا البكماء: «أوتسمع؟». فأطرق سـد هارتا برأسه مجيبًا. فهمس ڤازوديڤا أن يرهف السمع أكثر، وتداخلت صورة أبيه وصورته وصورة ابنه.. كل في الأخرى. وظهرت أيضًا صورة كمالة، وامتزجت بالصور الأخرى، وصورة جوفيندا، وصور أخرى ظهرت ومرت، وأصبحت جميعًا جزءًا من النهر. كان هو هدفها جميعًا، الحنين والرغبة والعذاب. وكان صوت النهر زاخرًا بالشوق، مفعمًا بالفجيعة الموجعة، حافلًا بالشهوة التي لا تشبع. وانساب النهر صوب هدفه. ورأى سـد هارتا أن النهر يسرع في جريانه، مُكَوَّنًا منه ومن أقاربه ومن الناس الذين رآهم جميعًا.

وأسرعت الأمواج والمياه جميعًا معذَّبة، صوب أهدافها.. أهدافها الكثيرة، متجهة صوب الشلال، صوب البحر، صوب التيار، إلى المحيط.. لقد تم بلوغ الأهداف كلها. غير أن كل هدف كان يخلفه هدف آخر. وتحولت المياه إلى بخار وتصاعدت، ثم أصبحت مطرًا وسقطت على الأرض مرة أخرى، ثم استحالت جدولًا وغديرًا ونهرًا. وتغيرت من جديد وتدفقت من جديد. غير أن الصوت الشيق قد تحول، إنه ما زال يتردد أسيان، باحثًا، ولكن تصاحبه أصوات أخرى، أصوات السعادة والحزن، أصوات خيرة وشريرة، ضاحكة ومنتحبة.. مئات الأصوات، آلاف الأصوات.

وأنصت سـد هارتا.. كان ينصت الآن في تركيز شديد، مستغرقًا تمام الاستغراق، خاليًا من كل شيء، حاويًا لكل شيء. وأحس أنه قد تعلم الآن تمامًا فن الإصغاء. وكان قد سمع هذا كله من قبل مرارًا وتكرارًا. هذه الأصوات المتعددة جميعًا صادرة عن النهر، ولكنها ترن اليوم رنينًا مختلفًا. ولم يعد قادرًا على تمييز الأصوات المختلفة، الصوت المرح من الصوت الباكي، والصوت الطفولي من الصوت الرجولي.. إنها تنتمي جميعًا بعضها إلى بعض. عويل أولئك الذين يشتاقون، ضحك الحكماء، صيحة السخط، وأنين المحتضر. كانت كلها متداخلة متضافرة بآلاف الطرق، تؤلف نسيجًا واحدًا. وهذه الأصوات جميعًا والأهداف جميعًا، وألوان

الحنين والأحزان، والمسرات، والخير والشر.. كلها مجتمعة معًا هي العالم. كلها مجتمعة معًا هي تيار الحوادث، موسيقى الحياة..

وعندما أنصت سـد هارتا في انتباه إلى هذا النهر.. إلى هذه الأغنية التي تتألف من ألف صوت، وعندما لم يستمع إلى الأسى أو الضحك، وعندما لم يقيد روحه إلى صوت واحد بعينه، ليستوعبه في ذاته، وإنما أنصت إليها جميعًا.. إلى الكل.. إلى الوحدة.. حينئذ كانت الأغنية العظيمة ذات الألف صوت تتألف من كلمة واحدة «أوم» – الكمال.

وسألته نظرة ڤازوديڤا مرة أخرى: «أوتسمع؟». وكانت ابتسامة ڤازوديڤا تشع بالضياء. وكانت ترفرف مشرقة على غضون وجه العجوز كلها. في الوقت الذي ترفرف فيه «أوم» على أصوات النهر جميعًا، كانت ابتسامته وضاءة وهو ينظر إلى صديقه. والآن ظهرت هذه الابتسامة نفسها على وجه سـد هارتا. كان جرحه يلتئم، وكان ألمه يتبدد. لقد امتزجت ذاته بالوحدة التي تحتضن الأشياء جميعًا..

منذ تلك الساعة، كف سـد هارتا عن الكفاح ضد مصيره. وعلى محياه أشرقت سكينة المعرفة.. سكينة شخص لم يعد يواجه تضارب الرغبات. شخص وجد الخلاص وأمسى في انسجام مع تيار الأحداث، مع تيار الحياة، مليئًا بالتعاطف والمشاركة، مسلمًا نفسه للتيار، منتميًا إلى وحدة الأشياء جميعًا..

وعندما نهض ڤازوديڤا من مقعده على شاطئ النهر، نظر في عيني سـد هارتا، فرأى صفاء المعرفة يتلألأ فيهما، لمس كتفه في رفق بطريقته العطوف الحانية وقال: «لقد انتظرت هذه الساعة يا صديقي.. وها هي قد وصلت الآن. دعني أذهب.. لقد كنت ڤازوديڤا.. الملّاح وقتًا طويلًا.. والآن، اكتمل كل شيء وداعًا أيها الكوخ، وداعًا أيها النهر، وداعًا يا سـد هارتا». وانحنى سـد هارتا انحناءة بالغة إزاء الرجل المرتحل.

قال بصوت رقيق: «كنت أعلم ذلك. هل ستذهب إلى الغابات؟» فأجاب ڤازوديڤا مبتهجًا: «أجل سأذهب إلى الغابات. سأذهب إلى وحدة الأشياء جميعًا..» وهكذا رحل. وجعل سـد هارتا يتابعه.. وفي فرح غامر، ووقار جليل، أخذ يراقبه، فشاهد خطواته عامرة بالسلام، ووجهه متألقًا وهيئته سابحةً في الضياء..

* * *

الفصل الثاني عشر

جوفيندا

أمضى جوفيندا- ذات مرة- فترة راحة مع بعض النساك الآخرين في بستان المتعة الذي أهدته كمالة الغانية لأتباع «جوتاما». وهناك سمع حديثًا عن ملّاح عجوز يعيش على شاطئ النهر، على مسافة تقطعها الرحلة في يوم. وهذا الملّاح العجوز يعتبره الكثيرون حكيمًا، وعندما شد «جوفيندا» رحاله، اختار سبيل المرسى، توَّاقًا إلى رؤية هذا الملّاح. ذلك أنه على الرغم من أنه عاش وفقًا للقاعدة، وكان النساك الأصغر منه سنًّا ينظرون إليه في احترام بسبب سنه وتواضعه، على الرغم من هذا، إلا أن شيئًا من عدم الاستقرار كان لا يزال في قلبه، كما أنه لم يصل بعد إلى الرضا عن سعيه.

وبلغ النهر، فطلب من الملّاح أن يعبر به النهر. فلما هبطا من الزورق على الجانب الآخر، قال للرجل العجوز: «أنت تبدي كثيرًا من العطف للنساك والحجيج، وقد عبرت بالكثيرين منا هذا النهر، ألست أنت أيضًا باحثًا عن الطريق القويم؟».

وشاعت ابتسامة في عيني سـد هارتا الكليلتين وقال: «أتسمي نفسك باحثًا، أيها الرجل المبجل، أنت يا من تقدمت بك السنون وترتدي ثوب النساك من أتباع جوتاما؟».

قال جوفيندا: «أنا عجوز حقًّا، ولكنني لم أنقطع قط عن البحث، ولن أنقطع أبدًا. ويبدو أن هذا هو قدري. ويبدو لي أنك بحثت أنت أيضًا. فهل حدثتني عن هذا قليلًا يا صديقي؟».

قال سـد هارتا: «ماذا يمكن أن أقول لك مما له قيمة، إلا إذا قلت لك إنك تبحث أكثر من اللازم، وإنه نتيجة لبحثك هذا، فإنك لا تستطيع أن تجد».

فسأله جوفيندا: «وكيف هذا؟» قال سـد هارتا: «عندما يبحث إنسان يحدث- في سهولة تامة- أنه لا يرى إلا الشيء الذي يبحث عنه، وهذا معناه أنه عاجز عن أن يجد شيئًا، أو أن يستوعب شيئًا، وذلك لأنه لا يفكر إلا في الشيء الذي يبحث عنه؛ لأن له هدفًا، ولأنه أسير هذا الهدف والبحث معناه: أن يكون لك هدف. أما العثور فمعناه: أن تكون حرًّا، أن تكون متلقيًا، ألا يكون لك هدف.

وأنت- أيها الشيخ الوقور- ربما كنت باحثًا بحق؛ لأنك بسعيك نحو هدفك لا تبصر كثيرًا من الأشياء التي تمر تحت أنفك».

قال جوفيندا: «لست أفهم عنك جيدًا! ماذا تعني؟».

قال سـد هارتا: «حدث ذات مرة.. أيها الشيخ الجليل، منذ سنوات عديدة أن أتيت إلى هذا النهر، ووجدت شخصًا نائمًا هناك، فجلست إلى جواره لتحرسه أثناء نومه، ولكنك لم تعرف الرجل النائم يا جوفيندا؟».

فبهت الناسك، وكأنما أصابه مَسٌّ من السحر وحملق في الملّاح، وتساءل في صوت يشوبه الوجل:

«أأنت سـد هارتا؟ لم أتعرف عليك، هذه المرة أيضًا. وأنا سعيد جدًّا لرؤيتك مرة أخرى يا سـد هارتا، سعيد غاية السعادة. لقد تغيرت كثيرًا يا صديقي. وهل أصبحت ملّاحًا الآن؟».

وضحك سـد هارتا في حرارة: «أجل، لقد أصبحت ملّاحًا.. ولا بد لكثير من الناس أن يتغيروا تغيرًا كبيرًا، وأن يرتدوا كل أنواع الثياب. وأنا واحد من هؤلاء يا صديقي. مرحبًا بك يا جوفيندا. وأنا أدعوك لقضاء الليلة في كوخي».

وقضى جوفيندا ليلته في الكوخ. ورقد على السرير الذي كان يوما لڤازوديڤا، وجّه إلى صديق صباه كثيرًا من الأسئلة، وكان في جعبة سـد هارتا الكثير مما يريد أن يرويه له عن حياته. وعندما حان

وقت رحيل جوفيندا في صباح اليوم التالي، قال في شيء من التردد: «قبل أن أمضي في طريقي، أود أن أسألك يا سـد هارتا سؤالًا واحدًا آخر، هل لك مذهب، أو عقيدة أو معرفة تعتنقها، وتعينك على أن تعيش وتفعل الصواب؟».

قال سـد هارتا: «أنت تعرف يا صديقي أنني حتى عندما كنت يافعًا، وكنا نعيش مع الزُّهاد في الغابة، انتهيت إلى الارتياب في المذاهب والمعلمين، وإلى أن أدير ظهري لهم. وما زلت على نفس هذا الاتجاه العقلي، وإن كان لي منذ ذلك الحين، كثير من المعلمين. فهناك غانية جميلة كانت معلمتي فترة طويلة، وهناك أيضًا تاجر غني، ولاعب بالنرد. وفي إحدى المناسبات، وقف مني أحد نساك بوذا الحواريين موقف المعلم، إذ توقف في رحلة حجه ليقعد إلى جانبي عندما غلبني النوم في الغابة.. ومنه أيضًا تعلمت شيئًا، وأنا عارف لجميله، شديد العرفان، ولكنني تعلمت أكثر من هذا النهر، ومن سَلفي ڤازوديڤا، كان رجلًا بسيطًا، ولم يكن مفكرًا، ولكنه أدرك ما هو جوهري، كما أدركه جوتاما.. كان رجلًا مباركًا، قديسًا».

قال جوفيندا: «يبدو لي يا سـد هارتا أنك ما زلت تحب المزاح قليلًا. وأنا أصدقك. وأعرف أنك لم تتبع أي معلم. ولكن إن لم يكن لك مذهب، أليس لك أنت نفسك أفكار معينة؟ ألم تكتشف أنت

نفسك معرفةً معينةً أعانتك على الحياة؟ سيكون من دواعي غبطتي الكبرى أن تخبرني بشيء من هذا؟».

قال سـد هارتا: «أجل، إن لديّ أفكارًا ومعرفة هنا وهناك. وفي بعض الأحيان ربما امتدت ساعة أو يومًا، أحس أنني على وعي بالمعرفة، كما يحس المرء بالحياة تنبض في قلبه. كانت لي أفكار كثيرة، ولكن من العسير عليَّ أن أحدثك عنها. ولكن، إليك هذه الفكرة التي تركت تأثيرها في نفسي يا جوفيندا. الحكمة لا تقبل التوصيل، والحكمة التي يحاول الرجل العظيم توصيلها للآخرين، تبدو دائمًا حمقاء؟».

فتساءل جوفيندا: «أتراك مازحًا؟».

- كلّا، وإنما أخبرك بما اكتشفته. المعرفة يمكن أن تكون قابلة للتوصيل، أما الحكمة فلا. وقد يستطيع المرء أن يعثر على الحكمة، وأن يتقوى بها، وأن يصنع الأعاجيب من خلالها، ولكنه لن يستطيع توصيلها وتعليمها للآخرين. وقد خايلتني شبهة من هذا عندما كنت شابًّا. وكان هذا هو ما دفعني بعيدًا عن المعلمين. إن عندي فكرة واحدة- يا جوفيندا- قد تظنها مزحة أو جنونًا، وهي أنه في كل حقيقة، العكس هو أيضًا صحيح، وعلى سبيل المثال، لا يمكن التعبير عن حقيقة ما وتغليفها في كلمات إلا إذا كانت متحيزة لجانب واحد، وكل ما يمكن التفكير فيه والتعبير عنه في كلمات

ذات جانب واحد، أي نصف الحقيقة فحسب، إنه يفتقر حينئذ إلى الشمول والاكتمال والوحدة، وعندما كان بوذا المستنير يعلمنا عن العالم، كان لا بد له من تقسيمه إلى سانسارا ونيرڤانا، إلى الوهم والحقيقة، إلى العذاب والخلاص، ولا مندوحة للمرء عن ذلك، إذ لا يوجد منهج آخر أمام من يتصدون للتعليم. يبدو أن العالم نفسه بوجوده فينا ومن حولنا، لا يمكن أن يكون أبدًا ذا جانب واحد، فما من إنسان أو فعل يمكن أن يكون كله سانسارا، أو كله نيرڤانا. ليس لإنسان أن يكون قديسًا خالصًا، أو خاطئًا خالصًا، وإنما يبدو ذلك لنا فحسب؛ لأننا نعاني من وهم يجعل الزمان شيئًا حقيقيًّا. الزمان ليس حقيقيًّا يا جوفيندا، وقد أدركت ذلك مرارًا، فإذا لم يكن الزمان حقيقيًّا، إذن فإن الحد الفاصل الذي يبدو أنه يقوم بين هذا العالم وبين الأبدية، بين الشقاء والسعادة، بين الخير والشر، هو أيضًا وهم.

وتساءل جوفيندا وقد اختلط عليه الأمر: «وكيف كان ذلك؟».

– اسمع يا صديقي.. أنا خاطئ.. وأنت خاطئ، ولكن الخاطئ سيصير براهما ذات يوم، والآن فإن هذا الـ «ذات يوم» وهم. إنه مجرد تشبيه، فالخاطئ ليس في طريقه إلى حالة يصير فيها بوذا، إنه لا يتطور. وإن كان تفكيرنا لا يستطيع أن يتصور الأمور إلا على هذا النحو. كلا إن بوذا الممكن موجود فعلًا في الخاطئ ومستقبله قائم هناك فعلًا.

«وهذا البوذا الممكن المستتر، ينبغي أن نتعرف عليه فيَّ، فيك، في كل إنسان».

«ليس العالم ناقصًا يا جوفيندا، ولا يتطور تطورًا بطيئًا في طريق طويل إلى الكمال؛ كلّا، إنه كامل في كل لحظة، وكل خطيئة تنطوي في داخلها على الغفران، والأطفال الصغار جميعًا شيوخ كبار بالإمكان. والرضع جميعًا يحملون الموت كامنًا فيهم، والأموات كافة موعودون بالحياة الأبدية. وليس من الممكن لشخص واحد أن يرى إلى أي مدى بلغ شخص آخر من أشواط الطريق، إن بوذا موجود في اللص مثلما هو موجود في المقامر، واللص موجود في البرهمي. ومن الممكن أثناء التأمل العميق نفي الزمان، ورواية الماضي والحاضر والمستقبل جميعًا في آن معًا، وعندئذ يصبح كل شيء خيرًا، كاملًا، براهما، ومن ثم، يبدو لي أن كل ما هو موجود خير، الموت والحياة على حد سواء، الخطيئة والقداسة، الحكمة والجنون. كل شيء ضروري، كل شيء لا يحتاج إلا لموافقتي، وتسليمي وفهمي المحب، وحينئذ يصبح كل شيء على خير ما يرام معي، ولا يستطيع شيء أن يصيبني بضرّ. لقد تعلمت عن طريق جسدي وروحي أنه لا مفر لي من الوقوع في الألم، وأنني في حاجة إلى الشهوة، وأنه ينبغي عليّ أن أسعى للتملك، وأن أعاني الغثيان وأعماق اليأس حتى أتعلم ألا أقاومها، وحتى أتعلم أن أعشق العالم وأن أكف عن مقارنته بنوع آخر من العالم الخيالي المرغوب فيه،

بنوع من الرؤية الخيالية للكمال، وإنما أن أتركه كما هو، وأن أحبه وأن أكون مسرورًا بالانتماء إليه. هذه يا جوفيندا هي بعض الأفكار التي تدور في خلدي».

وانحنى سـد هارتا إلى الأرض ورفع حجرًا وظل ممسكًا به في يده. قال وهو يتناوله: «هذا حجر، ولعله أن يصبح تربة بعد فترة معينة من الزمن، وربما خرج من التربة على هيئة نبات أو حيوان أو إنسان، وأما فيما سبق من أيامي، فقد كنت أقول: هذا حجر ولا يعدو أن يكون حجرًا، ولا قيمة له، فهو ينتمي إلى عالم «المايا»، ولكن لأنه من الممكن أن يصير في دورة التغير إنسانًا أو روحًا، كانت له أهمية هو أيضًا. كان هذا ما يمكن أن يذهب إليه فكري، أما الآن، فإني أفكر على هذا النحو: هذا الحجر حجر، وهو أيضًا حيوان وإله وبوذا. وأنا لا أحترمه وأحبه لأنه كان شيئًا وسيصبح شيئًا آخر، ولكن لأنه كان فعلًا كل شيء، وسيصبح دائمًا كل شي. وأنا أحبه لأنه مجرد حجر، ولأنه اليوم والآن يظهر لي على أنه حجر.. وأنا أرى القيمة والمعنى في كل ملمح من ملامحه، وكل تجويف من تجاويفه، في صفرته، ورماديته، وصلابته، والصوت الذي ينبعث منه عندما أدقه، وفي الجفاف والرطوبة على سطحه. وهناك أحجار ذات ملمس كالزيت أو الصابون، ومنها ما يبدو كأوراق الشجر أو الرمال.. كل واحد فيها مختلف ويعبد «أوم» على طريقته الخاصة، ولكنه في الوقت نفسه حجر شديد التحجرية، زيتيًّا كان أو صابونيًّا.

وهذا بالذات ما يسرني، وما يبدو رائعًا، خليقًا بالعبادة.. ولكنني لن أقول المزيد من ذلك، فالكلمات لا تحسن التعبير عن الأفكار، إذ تتحول دائمًا فتصبح شيئًا مختلفًا حالما يتم التعبير بها، شيئًا مشوهًا، أرعن إلى حد ما. ومع ذلك، فإنها تسعدني أيضًا، ويبدو من الصواب أن ما يبدو ذا قيمة وحكمة في نظر شخص، يبدو تافهًا لا معنى له في نظر شخص آخر».

وكان جوفيندا يصغي في صمت.

سأل مترددًا بعد برهة: «لماذا حدثتني عن الحجر؟».

– لقد فعلت ذلك عن غير قصد.. ولكن ربما كان يصور لك أنني أعشق الحجر والنهر، وكل تلك الأشياء التي تشاهدها، والتي يمكن أن تتعلم منها. إنني أستطيع أن أحب حجرًا يا جوفيندا، وشجرة، أو قطعة من اللحاء، هذه كلها أشياء، ويستطيع المرء أن يحب أشياء.

«ولكن الإنسان لا يستطيع أن يهوى ألفاظًا، وعلى هذا فإن التعاليم لا تجديني نفعًا، فهي لا تتميز بصلابة أو نعومة، وليس فيها ألوان ولا أركان أو روائح أو طعوم، ليس فيها شيء سوى الألفاظ، ولعل هذا ما يحول بينك وبين العثور على الخلاص، وربما كانت هناك ألفاظ أكثر من اللازم؛ ذلك أنه حتى الخلاص والفضيلة، والسانسارا والنيرڤانا لا تعدو أن تكون مجرد ألفاظ يا جوفيندا. النيرڤانا ليست شيئًا، ولا وجود لغير كلمة «نيرڤانا».

قال جوفيندا: «نيرڤانا ليست مجرد كلمة يا صديقي، إنها فكرة».

فواصل سـد هارتا حديثه قائلًا: «قد تكون فكرة، ولكن ينبغي أن أعترف يا صديقي، بأنني لا أفرق كثيرًا بين الأفكار والألفاظ. وبكل صراحة، أنا لا أعلق أيضًا أهمية أعظم على الأشياء. فقد كان هنا في هذا المرسى- على سبيل المثال- رجل كان سلفي وأستاذي.. كان رجلًا مقدسًا، ظل سنوات طويلة لا يؤمن إلا بهذا النهر ولا شيء سواه.. وقد لاحظ أن صوت النهر يتحدث إليه.. فتعلم منه، وكان الصوت يربيه ويلقنه، وقد بدا له النهر إلهًا، وظل أعوامًا متعاقبة لا يعرف أن كل ريح، وكل سحابة، وكل طائر، وكل برعم، إلهي أيضًا، وأنه يعرف ويستطيع أن يعلم مثلما يعلم النهر المبجل. ولكن عندما رحل هذا الرجل المقدس إلى الغابات، كان قد عرف كل شيء، كان يعرف أكثر مما نعرفه أنت وأنا، بغير معلمين وبغير كتب، كل ما في الأمر أنه آمن بالنهر».

قال جوفيندا: «ولكن هذا الذي تدعوه شيئًا، هل هو شيء حقيقي.. شيء جواني؟ أليس مجرد وهم للمايا.. مجرد صورة وظاهر؟ حجرك، وشجرتك هل هما حقيقتان؟».

قال سـد هارتا: «وهذا أيضًا لا يزعجني في كثير أو قليل. فلو أنهما وهم، فسأكون أنا أيضًا وهمًا، وهكذا سيكونان دائمًا من نفس طبيعي. وهذا ما يجعلهما خليقين بكل هذا الحب والإجلال، وهذا

ما يجعلني أحبهما. وإليك هذا المذهب الذي سيضحكك!».

«يبدو لي يا جوفيندا أن الحب هو أعظم شيء في العالم، وقد يكون من المهم لكبار المفكرين أن يفحصوا العالم، وأن يفسروه أو يحتقروه، ولكنني أعتقد أن الشيء المهم الوحيد هو أن تحب العالم، لا أن تزدريه، وليس لنا أن يبغض أحدنا الآخر، بل أن نكون قادرين على أن ننظر للعالم وإلى أنفسنا وإلى كل الكائنات في حب و إعجاب وإجلال».

قال جوفيندا: «أفهم هذا. ولكن هذا بعينه ما كان يسميه المستنير وهمًا. كان يدعو إلى الإحسان والتحمل، والتعاطف والصبر. ولكنه لم يكن يدعو إلى الحب. كان يحذرنا من تقييد أنفسنا بالحب الأرضي».

قال سـد هارتا وهو يبتسم ابتسامة مشرقة: «أعرف ذلك. أعرف ذلك يا جوفيندا، وهنا نجد أنفسنا داخل متاهة المعاني، وسط صراع الألفاظ. فأنا لا أنكر أن كلماتي عن الحب تناقض تعاليم جوتاما تناقضًا ظاهريًّا، وهذا ما يجعلني أفقد الثقة بالكلمات؛ لأنني أعلم أن هذا التناقض وهم».

«فإنني أعلم أنني و«جوتاما» لا نختلف في شيء. كيف يمكن حقًّا ألا يعرف الحب، هو الذي أدرك غرور البشر ووجودهم العابر، ومع ذلك فإنه يحب الإنسانية إلى درجة أنه كرس حياة طويلة

لمساعدة الناس وتعليمهم؟ ومع هذا العلم العظيم أيضًا، يبدو لي الشيء أعظم أهمية من الكلمات، وأعماله وسيرته أهم عندي من الآراء، فأنا لا أنظر إليه بوصفه رجلًا عظيمًا في مجال الخطابة أو الفكر، وإنما في أعماله وسيرته».

وأخلد الشيخان إلى الصمت فترة طويلة، ولما أخذ جوفيندا يتأهب للرحيل قال: «أشكرك يا سـد هارتا لإفضائك إليَّ بشيء عن أفكارك، وبعضها أفكار غريبة، ولا أستطيع أن أستوعبها في الحال. ومهما يكن من أمر، فأنا أشكرك وأتمنى لك أيامًا كثيرة يسودها السلام».

ولكنه كان يفكر في نفسه على كل حال قائلًا: إن سـد هارتا رجل غريب، وهو يعبر عن أفكار غريبة، وتبدو أفكاره أشبه بالجنون. وما أشد اختلاف معتقدات المستنير عنها. إن أفكاره واضحة، مستقيمة، قابلة للفهم، ولا تنطوي على شيء غريب وحشي، أهل للضحك. يبدو أن يدي سـد هارتا وقدميه، وعينيه، وجبينه، وتنفسه، وابتسامته وطريقته في التحية والمشية، تؤثر عليَّ تأثيرًا مختلفًا عن أفكاره. ولم ألتق قط منذ أن انتقل جوتاما المستنير إلى النيرڤانا.. لم ألتق بأحد اللهم إلا سـد هارتا، أحسست إزاءه، بأن هذا هو رجل مقدس! وقد تكون أفكاره غريبة، وألفاظه حمقاء، ولكن نظرته ويده، وبشرته وشعره.. كلها تشع صفاءً وسلامًا، وسكينة، ورفقًا، وقداسة لم أرها

قط في أي إنسان منذ وفاة معلمنا المستنير..

وبينما كان جوفيندا يقلب هذه الأفكار، و كان قلبه نهبًا للصراع، انحنى مرة أخرى لسـد هارتا ونفسه فياضة بالحب نحوه. وكانت انحناءته خفيضة أمام الرجل الجالس في هدوء.

قال: «سـد هارتا، نحن الآن شيخان، وقد لا يرى أحدنا الآخر في هذه الحياة مرة أخرى. وأنا أرى- يا صديقي العزيز- أنك قد وجدت السلام وأدرك أنني لم أجده. قل لي كلمة أخرى واحدة يا صديقي المحترم، قل لي شيئًا أستطيع أن أتصوره، أستطيع أن أفهمه. أعطني شيئًا يمكن أن يساعدني في طريقي يا سـد هارتا. فطريقي شاق مظلم في معظم الأحيان».

وكان سـد هارتا صامتًا، ينظر إليه تلك النظرة الهادئة التي يسودها السلام. ونظر جوفيندا في وجهه نظرة ثابتة في شيء من القلق والشوق، وكان الألم والبحث الدائب والإخفاق المستمر مسطورة في نظره.

ورآها سـد هارتا فابتسم.

وهمس في أذن جوفيندا «مل بالقرب مني. تعالى، أقرب من ذلك، على مقربة مني تمامًا! وقبلني على الجبين يا جوفيندا».

ومع دهشته البالغة، كان جوفيندا مدفوعًا بحب عظيم وتوقع إلى إطاعته، فمال قريبًا منه، ولثم جبينه بشفتيه، وما إن فعل ذلك

حتى وقع له شيء عجيب.. فبينما كان يفكر في كلمات سـد هارتا الغريبة، وبينما كان يجاهد عبثًا في استبعاد تصور الزمان، وتصور النيرڤانا والسانسارا بوصفهما شيئًا واحدًا، وبينما كان نوع من الازدراء لكلمات صديقه يتصارع مع حب هائل وتقدير له حدث له هذا:

لم يعد يشاهد وجه صديقه سـد هارتا، وبدلًا من ذلك، شاهد وجوهًا أخرى: وجوهًا كثيرة.. سلسلة طويلة، تيارًا مستمرًا من الوجوه، مئات.. آلاف، ظهرت جميعًا ثم اختفت، ومع ذلك بدت كأنها موجودة كلها هناك في وقت واحد. وكانت هذه الوجوه تتغير كلها باستمرار وتجدد أنفسها، ومع ذلك كانت كلها سـد هارتا، ورأى وجه سمكة ووجه شبوطة بفم هائل مفتوح يعبر عن الألم، سمكة تموت بعينين معتمتين، وشاهد وجه طفل حديث الولادة، أحمر مليئًا بالغضون، متأهبًا للصراخ، ورأى وجه قاتل يغمد سكينه في جسد إنسان وفي نفس اللحظة أبصر هذا المجرم جاثيًا على ركبتيه مقيدًا بالأغلال، وقد أطاح الجلاد برأسه. ورأى أجساد الرجال والنساء العرايا في أوضاع الحب الشهواني ونشواته، ورأى جثثًا ممدودة، ساكنة، باردة جوفاء.. ورأى رؤوس حيوانات وخنازير وتماسيح وفيلة وثيران وطيور.. ورأى كريشنا وآجني، رأى كل هذه الأشكال والوجوه في آلاف العلاقات بعضها مع بعض، وكلها يساعد بعضها بعضًا: محبة، مُبْغضة، مُدمرة بعضها بعضًا

لتولد من جديد. كان كل منها فانيًا، نموذجًا حيًّا مؤلمًا لكل ما هو عابر. ومع ذلك لم يمت واحد منهم، وإنما كان يتغير فحسب، ويولد دائمًا من جديد، ويتخذ باستمرار وجهًا جديدًا. كان الزمان وحده هو الذي يفصل بين وجه وآخر.. وكانت هذه الأشكال والوجوه جميعًا تستقر، وتتدفق، وتظهر من جديد، وتسبح عابرة ثم يندمج أحدها في الآخر. وكان فوقها جميعًا باستمرار شيء رقيق غير واقعي، ولكنه موجود، ممدود عليها كغشاوة رقيقة من الزجاج أو الثلج، كأنه بشرة شفافة، صدفة، صورة أو قناع من الماء، وهذا القناع هو وجه سد هارتا الباسم الذي لثمه جوفيندا بشفتيه في تلك اللحظة.. ورأى جوفيندا أن هذه الابتسامة الشبيهة بالقناع، ابتسامة الوحدة هذه التي تشرف على الأشكال المتدفقة، ابتسامة التزامن هذه المنتشرة فوق آلاف الولادات والوفيات، ابتسامة سد هارتا هذه هي نفس ابتسامة جوتاما، بوذا، الهادئة، الرقيقة الغامضة التي ربما كانت رشيقة أو ساخرة أو حكيمة، ابتسامة جوتاما ذات الألف معنى الذي أبصرها في رهبة مئات المرات. وكان جوفيندا يعلم أن بهذه الطريقة ابتسم «الكامل».

ودون أن يدري هل وُجد زمان أو لم يوجد، وسواء استغرق هذا الكشف ثانية واحدة أو مائة عام، أو كان هناك سد هارتا أو جوتاما، ذات أو ذوات أخرى، فقد كان مجروحًا في أعماقه بسهم إلهي منحه السعادة، وغمره بالسحر والانتشاء. ووقف جوفيندا برهة منحنيًا

فوق وجه سـد هارتا المطمئن الذي لثمه منذ لحظات، والذي كان مسرحًا لكل الصور الحاضرة والمستقبلة، وظلت ملامحه دون تغيير بعد أن اختفت المرآة ذات الألف صورة من صفحته. وابتسم في سكينة ورفق، وربما في تهكم شديد، تمامًا كما كان المستنير يبتسم.

وانحنى جوفيندا انحناءة خفيضة، فانهمرت دموع لم يستطع لها دفعًا فوق وجهه العجوز.. وقد استبد به شعور بحب عظيم، وتوقير شديد التواضع، انحنى حتى لامس الأرض أمام الرجل الذي يجلس هناك بلا حراك. الرجل الذي ذكرته ابتسامته بكل ما أحبه في حياته، بكل ما كان قَيِّمًا مقدسًا في حياته..

* * *